

## الفصل السابع

### أخلاقيات المهن والحرف

يشتمل هذا الفصل على :

- \* مقدمة .
- \* نية العمل .
- \* تجنب النجش .
- \* الصدق .
- \* تجنب الغش .
- \* تجنب الحلف .
- \* تجنب الاحتكار للسلعة .
- \* الوفاء بالكيل والميزان .
- \* اتقاء الشبهات .
- \* الوفاء بالعهد .
- \* السماح في البيع والشراء وإنظار المعسر .
- \* التطوع بالعمل بدون أجر في ظروف خاصة .
- \* الأمانة .
- \* تجنب أكل أموال الناس بالباطل .
- \* تجنب المنابذة والملازمة .
- \* تجنب المزبنة .
- \* شروط البيع والشراء .
- \* مراعاة الوقت ودقته .
- \* مراقبة الله في العمل .
- \* الإتيقان .
- \* الشعور بالمسؤولية .
- \* العمل التعاوني



## أخلاقيات المهن والحرف

مقدمة :

المبادئ والأخلاق الإسلامية منها ما هو عام يعتنقها كل مسلم ، ومنها ماورد مخصصا لنشاط معين يعتنقها المسلم الذى يزاول النشاط . والأخلاق هى جوهر الإسلام وروحه السارية فى جميع نواحيه ، والرسول ﷺ هو « النموذج الاعلى لهذه الاخلاق » (١) ، وقد وصفه الخالق عز وجل بقوله : ﴿ وَأَنْتَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [ القلم ] فلم يكن « بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الاسواق » (٢).

إن الاخلاق تحتل بصفة عامة مكانه مهمه فى تكوين شخصية المسلم مها كانت مهنته أو حرفته ، ويكفى أن نذكر هنا قول الرسول ﷺ : « إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً » (٣).

ولقد كانت الاخلاق من السمات الاساسية للمجتمع الإسلامى ، فهى الترجمة العملية للدين الإسلامى ؛ لأن الإسلام « يربط الاخلاق بالدين ويعتبرها الجانب العملى التطبيقى للدين » (٤).

ومما تجدر الإشارة إليه أن « القرآن أصل الاخلاق الإسلامية » (٥). والاخلاق بهذا المعنى خروج من عبودية النفس ، والاتجاه إلى الخالق سبحانه وتعالى خروج من الرغبة فى شىء مادى إلى الرغبة فى رضاء الله سبحانه وتعالى ، كذلك فإن « موضوع القيم الاخلاقية فى الإسلام هو علاقة الإنسان بربه ومجتمعه وبالكون الذى يعيش فيه ، ونظرته إلى نفسه وإلى الآخرين وإلى سلوكه ، وإلى مكانته فى المجتمع بأنظمتها وعلاقاتها بماضيه وحاضره ومستقبله » (٦).

« ويخطئ الكثيرون حين يعالجون موضوع الإنتاج منفصلاً عن تصور الإنسان لحياته ودوره فيها ، وكيفية تناوله لوسائل عيشه وأسباب رزقه » (٧) ، وذلك أن دور

(١) محمود السيد سلطان : مفاهيم تربوية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٩٠ .

(٢) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٨٧ .

(٣) المرجع السابق ، ج ٨ ، ص ١٦ (باب حسن الخلق )

(٤) عمر التومى الشيبانى : فلسفة التربية الإسلامية ، الطبعة الاولى ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، ١٩٧٥ م ، ص ٢٣ .

(٥) أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١١ .

(٦) محمد الهادى عفيفى : فى أصول التربية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ص ٣٧٧ .

(٧) أحمد محمد العسال ، فتحى عبد الكريم : النظام الاقتصادى فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

الأخلاق وتأثيرها فى دفع الطاقة الإنسانية وتقديمها لأحسن ما عندها أمر لاختلاف عليه .  
« والقيم الأخلاقية فى الإسلام هى نتاج طبيعى للإيمان ؛ لأن قيم الصدق والجهاد والكرم وإنظار المعسر لا يمكن أن تكون لها قيمة فى عزلة عن الإيمان » (١) .

إن « مجال الأخلاق فى الإسلام هو مجال الحياة كلها ، فالأخلاق الإسلامية فى علاقتها بالبناء الاجتماعى جاءت وفقا للمقومات البشرية المشتركة فى صورة مبادئ كلية عامة ، تقبل التفريع والتطبيق فى الجزئيات المتجددة والأصول المتغيرة دون أن تفارق أصول الحياة الإنسانية وجوانبها المختلفة ، وتحمل فى مضمونها عناصر التطور والتقدم » (٢) .

ويشمل النظام الأخلاقى فى الإسلام أخلاقاً نظرية وأخرى عملية ، فقد حث الإسلام على ربط القول بالعمل والنظرية بالتطبيق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت] .

وفى موضع آخر : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة] .

« والقيم الأخلاقية قيم أساسية لاستطيع الاستغناء عنها ؛ إذ إنها من صلب الدين الذى ندين به فى مجتمعنا العربى وهو الدين الإسلامى الحنيف ، ولكى يكون لها دور واضح يجب ربطها بالواقع الذى نعيش فيه حتى يؤمن الأفراد بقيمتها العملية إلى جانب إيمانهم بقيمتها النظرية » (٣) .

« وينتج عن اتصال الأخلاق بالواقع الذى يعيش فيه الإنسان أنها لاتصبح قاعدة من القواعد التى يجب أن تطبق دون تفكير ، وإنما دخول التفكير وقيامه بعملية فى ميدانها هو الذى يعطيها قيمة أخلاقية ، وبذلك يستطيع الإنسان أن يحدد مواطن الصعاب التى تعترضه والتى تواجهه ، وأن يحدد المسائى والشُرور التى يصادفها ، وأن يصل إلى طرق تؤدى إلى القضاء عليها » (٤) بما لا يتعارض وقيمه الأخلاقية .

## الأخلاقيات والمهن والحرف :

أثبتت الدراسات الاجتماعية المقارنة والدراسات الاقتصادية أن أخلاقيات المجتمع وسلوكياته لها أثر كبير على شكل النظام وعلى نوع التنمية الناتجة عن هذه السلوكيات ،

(١) جابر قميحة : المدخل إلى القيم الإسلامية ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ، ١٩٨٤ ص ١٣٠ .

(٢) سيد قطب : نحو مجتمع إسلامى ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) حسن قطب الجلادى : تنمية بعض القيم الأخلاقية عند التلاميذ فى مرحلة التعليم الأساسى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم أصول التربية ، كلية التربية ، جامعة المنصورة ، ١٩٨٨ ، ص ٣٩ .

(٤) محمد ليب النجيجى : فلسفة التربية ، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص

وقد أصبح من الأمور التي لاشك فيها أن النظام العام لاى مجتمع ، ينبثق انبثاقاً من المنهج الأخلاقى لحياة الأمة وسلوكها ونظرتها العامة ، وبالتالي فإن التنمية تتأثر تأثيراً مباشراً بأخلاقيات المجتمع ، فليست التنمية مجرد اختيار منهج من مناهج الفكر ، أو اختيار نظام معين من الأنظمة السائدة ، وإنما التنمية فى حقيقتها عبارة عن تفاعل الأمة بكاملها وتحريك جميع طاقاتها لتحقيق أهداف وغايات التنمية ، الأمر الذى لا يتم ولا يحصل البتة إلا بتبنى منهج وغايات وخطط وأسلوب ، لا يتعارض مع أخلاقيات المجتمع وفلسفته ونظراته العامة للحياة والكون والإنسان والخالق جل جلاله ؛ ولهذا كان من المهم دراسة أخلاقيات المجتمع لمعرفة مدى انسجامها أو تعارضها مع مستلزمات التنمية (١). وفى مجال التنمية الاقتصادية أكدت عدة كتابات على ضرورة جعل ما كان يعامل معاملة الثوابت كمتغيرات عند دراسة تطور المجتمعات وأحد هذه الثوابت الأخلاقية ، ومن هؤلاء ( أ . هيجن ) إذ يقرر : أن الانتقال إلى مرحلة النمو الاقتصادى يصحبها تغييرات سياسية واجتماعية أساسية ، وترجع أسباب ذلك إلى القوى التى تؤثر فى جوانب متعددة من السلوك الإنسانى (٢).

إن التنمية الاقتصادية عملية معقدة متعددة الجوانب وتحتاج إلى معالجة شاملة ، غير أن أحد جوانبها الأساسية هو القيم الأخلاقية التى تسود المجتمع ، والفضائل التى أجمع علماء الأخلاق عليها تؤدى إلى خلق ظروف أفضل للتنمية أسرع .

والإسلام بما حواه من مكارم الأخلاق يدفع فى هذا الاتجاه بشرط الإيمان بهذه القيم (٣).

ويظهر تأثير القيمة الأخلاقية على المتغيرات الاقتصادية المواتية لعملية التنمية الاقتصادية :

### تكوين رأس المال :

إن الاعتدال فى الانماط الاستهلاكية والحفاظ على النعمة مهما كانت إمكانيات الفرد كبيرة ، لا بد وأن تجعل الميل الجدى للاستهلاك أقل من نظيره فى المجتمعات التى لاتبنى هذه القيمة ، ومن ثم فإن ما يترك لأغراض الادخار والاستثمار لا بد وأن يكون

---

(١) سلطان أبوعلى : « الأخلاق والتنمية » أبحاث ندوة « إسهام الفكر الإسلامى فى الاقتصاد المعاصر » التى نظمها جامعة الأزهر ( مركز صالح عبد الله كامل للأبحاث والدراسات التجارية والإسلامية ، والمعهد العالمى للفكر الإسلامى « واشنطن » فى الفترة من ٦ - ٩ سبتمبر ، ١٩٨٨ ، منشورات المعهد العالمى للفكر الإسلامى » ص ٥٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥٥ . نقلا عن :

E . Ehagen : on the theory of social chonge; How Economic Growth Begins porsey , Press, 1962 , P.35 .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٥٧ .

أكبر ، ومن ثم تمول التنمية بدرجة أكبر من الموارد الذاتية .

### زيادة الإنتاج :

يرتبط بعلاقة مباشرة بالعمل وإتقانه وكذلك بالانتفاع بالزمن ، والشجاعة والاحترام تدفع إلى إدخال الموارد الجديدة فى دائرة الاستغلال بدلاً من تركها عاطلة ، وكل هذا يؤدى إلى زيادة الإنتاج ، أو بمعنى آخر فإن زيادة تحلى أفراد المجتمع بفضائل الأخلاق يؤدى إلى رفع إنتاجية عوامل الإنتاج المختلفة .

### عدالة التوزيع :

إن عدالة التوزيع تجعل أفراد المجتمع يسهمون بدرجة أكبر فى إنمائه نتيجة لشعورهم بالانتماء إليه والإفادة من ثماره ، وقيمة العدل والتعاون هى خير ما يدفع الأفراد ذاتياً نحو تحقيق مزيد من العدالة فى المجتمع .

### تنفيذ السياسات اللازمة :

لقد أظهرت تجارب القيم أن النجاح فى تحقيق هذا الهدف لا يعتمد على مجرد الاكتفاء بوضع الخطط بل فى حالات كثيرة ، فإن تجارب التخطيط لم تكن مرضية بدرجة كافية وذلك لسببين :

أولاً : أن الخطط لم تحقق تطلعات أفراد الشعب التى حوتها هذه الخطط .

ثانياً : تسبب الأخطاء التى تراكمت فى ظل غياب قوى التصحيح .

ومن ثم تصبح هناك حاجة إلى اتباع سياسات تصحيحية فى مجال السياسات المختلفة ، مثل إصلاح الاختلالات السعرية ، وربط الأجر بالإنتاج ، واستعادة التكلفة الاستثمارية من تسعير الخدمات الأساسية مع تجنب التضخم الجامح<sup>(١)</sup> .

« ومثل هذه السياسات غير شعبية ولا تنطبق إلا بصعوبة مالم يكن هناك صدق ومصداقية بين الحكومة والشعب ، ومن هنا تبرز أهمية الصدق كسلوك أخلاقى يحكم أفراد المجتمع . ويتضح من هذا أن الالتزام بهذه القيم الأخلاقية يدفع عجلة التنمية بدرجة أسرع عن حالات غيابها ، وحيث إن هذه القيم متضمنة فى الإسلام فإن التأكيد عليها يؤدى إلى تحقيق التنمية الاقتصادية ، والاجتماعية بفاعلية أكبر . ومعنى التأكيد عليها فى المفهوم الإسلامى أن تفر فى القلب وأن يصدقها العمل<sup>(٢)</sup> .

إن حديث علماء المسلمين عن الأخلاق والقيم ليبين إدراكهم أن الأخلاق عنصر

(١) المرجع السابق ص ٥٥٦ نقلاً عن :

W.C.Baum and S.M topbiert; Investing in Development,. oxford university . press, 1985.

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥٦ .

أساسى للتنمية ، فهي تسمو بالإنسان ، وتحمى فاعلياته وإنجازاته ، فحاجة التنمية إلى القيم أمر مؤكد ؛ نظراً لأن القيم الخلقية تعتبر عنصراً جوهرياً لاستقطاب أى نشاط مشترك منتج لتسمو به فوق الحاجة الوقتية والمنفعة والمصلحة الشخصية ، واتجاهات الحياة اليومية ، وهى من ناحية أخرى تحمى شبكة العلاقات الاجتماعية ، وهى ضرورة لجهود التنمية الصحيحة . وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقى فى مجتمع معين ، حدث تمزق فى شبكة العلاقات الاجتماعية التى تتيح له أن يصنع تاريخه ، فهى إذن من أهم وسائل بعث الطاقة الروحية الخيرة لدى الأفراد ، للانتصار على أنفسهم والتفاعل مع البيئة بما فيها ومن فيها ، فضلاً عن أنها تساعد على بلورة الرؤية الحضارية ، وتوضح غاياتها فى استخدام الأشياء ، وهذا مما يساعد على نجاح جهود التنمية ، ودفعها فى الطريق الصحيح .

والإسلام يحتوى على تعليمات أخلاقية ، وبناء أخلاقى متكامل يمتاز بالحياة القائمة على التفاعل بين الإنسان وبين تلك القواعد الأخلاقية الإسلامية ، تظهر فاعليتها فى مجال التنمية الإسلامية فى تحقيق الأهداف ، وفى حماية منجزات المجتمع الإسلامى ، والفرد فى المجتمع الإسلامى من الانهيار والانحلال والتسيب ، فهى ضابط للجهل التنموى المبذول ، تضبط إيقاعه ، وتحوله إلى فعالية حقيقية وواقع يحقق للناس سعادة الدنيا والآخرة (١) .

وهكذا اهتمت أدبيات التربية الإسلامية بالعنصر الأخلاقى فى تكوين شخصية المسلم بحيث لا يخلو كتاب منها من الحديث عن أخلاق ( الطالب والمعلم ) .

ومن ثم فالمهنى أو الحرفى المسلم إنما يستمد أخلاقه من أخلاق هذا الدين عامة غير أن كتب الحسبة بالذات قد ركزت بحوار تلك الدعوة الأخلاقية العامة على بعض الجوانب المهمة فى حياة الحرفى اليومية (٢) .

فقد تحدث الشيرزى عن الحسبة وأحكامها بادئاً بتعريفها أنها « أمراً بمعروف ، ونهياً عن منكر ، وإصلاحاً بين الناس » (٣) .

قال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٤) [ آل عمران ] . والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس بقاصر على ولاه الحسبة وإنما ساعدهم فى ذلك شيوخ الطوائف المهنية أو العمالية فى المجتمع المسلم . ويطول الحديث لو ذهبنا ننقل من كتب الحسبة ما ورد فى شأن

(١) على خليل أبو العنين : التربية الإسلامية والتنمية ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .

(٢) عبد الرحمن النقيب : « مدخل لدراسة الاتجاه الحرفى والمهنى فى التربية الإسلامية » بحوث فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .

(٣) عبد الرحمن الشيرزى : « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ، مرجع سابق ، ص ٦ .

أخلاقيات المهن والحرف ؛ ولذا نكتفى بالإشارة هنا إلى القليل منها .

يقول الشيرزى : « جميع أرباب الحرف أمثال السباكين والرخامين والطلائين وصناع الأقفال وغيرهم الذين يعقدون اتفاقاً ، ويتقاضون تأميناً أو ( عربوناً ) مقابل القيام بأى جزء من أجزاء العمل ، فينبغى عليهم ألا يتخلوا عن هذا الجزء من العمل ، لتأدية عمل آخر قبل أن ينجزوا العمل الأول » (١) ، كذلك لابد من مراعاة « العناية والمهارة فى عملهم » (٢) ، كذلك « لابد من مراعاة ساعات العمل إذا كان باليومية . فقد يوافق أكثر الصناع على أجرة معلومة كل يوم فيتأخرون عند الغد وينصرفون قبل المساء » (٣) ، وإن جرى فيما يعملها العامل زيف أو ميل أو انحراف عن الاستواء لزمه عيب ذلك وفساده حتى يعود صحيحاً مستقيماً ، وذلك مثل « من لم يستعمل من يبنى من الصناع ما يصحح به عمله من زوايا وموازين وخيوط » (٤) .

ويقول ابن الإخوة فى الذى يمارس الفصادة : « ينبغى ألا يتصدى للفصد إلا من اشتهرت معرفته وأمانته وجودة علمه بتشريح الأعضاء والعروق والعضل والشرايين وأحاط بمعرفتها وكيفيتها ؛ لئلا يقع المبضع فى عروق غير مقصودة أو عضلة أو شريان فيؤدى إلى زمانة العضو وهلاك المقصود » (٥) .

ورجل الحرفة أو المهنة مطالب بأن يتحلى بالأمانة فى عمله وعدم الغش والتدليس فى صناعته ، فالتحاسن والحدادون مثلاً « لا يجوز لهم إذا اشتروا قطعة نحاس فيها لحامات إلا أن يُطلع المشتري عليها ، وإذا كانت مما يبيض فيأمرهم أن ينقشوا عليها عتيق ملحوم بقلم غليظ حتى يعرفه المشتري ويدخل على بصيرته ، فإن أخفاه ولم يطلعه عليه كان غاشاً ، فإن اطلع بعد ذلك المشتري عليه ، ثبت له الرد وعزره المحتسب على غشه » (٦) .

ولقد تناول علماء المسلمين أمثال الشيرزى وابن الإخوة وغيرهم أخلاقيات كل مهنة أو حرفة على حدة فى كتب الحسبة ، فذكر ابن الإخوة سبعين باباً فى الحسبة على مهن وحرف مختلفة ، وقد تناول أخلاقيات كل منها ، أما عبد الرحمن الشيرزى ، فقد ذكر أربعين باباً يشتمل على تفاصيل فى أمور الحسبة .

كما وضع بعض العلماء عدة قواعد يجب مراعاتها قبل الدخول فى المهنة ، إنها قواعد أخلاقية يجب مراعاتها بشدة إذا ما أردنا تنمية إسلامية صحيحة ، تنمية إسلامية تستهدف الإنسان أولاً وأخيراً وليس تنمية رأسمالية تؤدى إلى مجتمعات استهلاكية

(١) عبد الرحمن الشيرزى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، مرجع سابق ، ص ١٧٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(٣) ابن الإخوة : معالم القرية فى أحكام الحسبة ، مرجع سابق ، ص ٢٣٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

فارغة. وهذه القواعد تعتبر آداباً تتعلق بالمهنة والحرف، وقد أصبحت تقاليد لها أصولها، وهذه « وثيقة تاريخية » تبين كيف يدخل العامل في الصنعة ملتزماً بآداب العمل، وكيف يشد على حزام الصنعة ليدخل فيها ويكون جميع الحاضرين جالسين على ركبهم مطرقى الرؤوس، ثم يطلب النقيب من العامل قراءة الفاتحة ثم يذكر النبي ﷺ ويتلو الفاتحة مرة ثانية، وبعد أن يفرغ منها يسلم النقيب سبعة سلامات سلام على الحاضرين، وسلام على أهل الحرفة وشيوخها، وسلام على الميمنة، وسلام على الميسرة، وسلام على السادة، وسلام على الأصحاب، وسلام على الأحباب. ثم يلتفت إلى العامل ويقول له : أوصيك يا أخى يا من تخاوى وتعاهد بأداء الفروض ورعاية العهد، ويشهد عليك الحفظة، وسيكتب من يضيعة من المبعدين، أى بنى، إن جميع الحرف أهلها أمناء على الأعراض والأرواح والأموال، فكن صديقاً أميناً، واعلم أن كارك مثل عرضك حافظ عليه بكل ما تملك، وإذا استلمت أموال الناس فلا تفرط بها، وإياك أن تخون أهل الحرفة، والخائن مستول، ويدخل العامل بعد ذلك في الحرفة (١).

« والنهوض بالمهنة ليست مسئوليته وحده، بل كانت نقابات المهنة أيضاً مسئولة عن مستوى المهنة، بحيث يستطيع العميل أن يتقدم بالشكوى إلى النقيب فى حالة محاولة العامل خداعه، أو قيامه بالعمل بصورة ظاهرة النقص والعيب، والأساتذة والأسطوات يحددون مستوى الصنعة وأجورها المناسبة فى حالات الخلاف » (٢).

إن للعمل أخلاقيات وسلوكاً يجب أن تقتزن فيه؛ لأنه مصداق الإيمان ومعيار الثواب والعقاب، وأن يرتفع العامل على أن يكون الغاية من عمله تحصيل الأجر والمكافأة. بل ينبغى أن يكون المقصد الأول مرضاة الله وخدمة الأمة.

وهذا أمر التزمه المسلمون أولاً فصلحت أعمالهم وخلدت على الزمن آثارهم فى مجالات العمل، ولنضرب مثلاً على ذلك هذه المساجد المبنية، والقصور العامرة، والمسجد الأقصى عندنا، وقد استغرق بناؤه سبع سنوات، ولا يستطيع عمال أن ينجزوه فى هذه الفترة القصيرة مع تقدم التقنية والمخترعات والهندسة.

« وآداب العمل مع التقوى حددها الإسلام وحرص عليها المسلمون والتصقت بأعمالهم فى الفترات الزاهية التى سيطر فيها الإسلام على القلوب والأعمال واقتزن فيها العمل بالإيمان » (٣).

(١) جمال البنا : تعميق حاسة العمل فى المجتمع الإسلامى، مطبعة مصر، القاهرة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ص ٣٨.

(٢) السيد الشحات أحمد حسن : « تعليم الصنائع » الفكر التربوى العربى الإسلامى، الأصول والمبادئ، مرجع سابق، ص ٨٧٧.

(٣) عبد العزيز الحياط : نظرة الإسلام للعمل وأثره فى التنمية، مرجع سابق، ص ٢١، ٢٢.

وبهذا المنظور نرى ما خلفه المسلمون من آثار . فى عمارة أوفنون بكل ألوانها إذ نرى تخطيطاً فى الفكر وإتقاناً فى التنفيذ وروعة فى الأداء « ولعل فى مهندسنا المعماري المسلم ( سنان ) الذى عاش فى القرن الحادى عشر الهجرى وأنشأ نحو ثلاثمائة وثلاثين منشأة هندسية خير نموذج لصاحب المهنة المسلم ، حيث كان يقول مصوراً مشاعره تجاه عمله وحرفته : ( إننى أستضىء بنور الله فيما أعمل ) كما كان يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى داعياً باستمرار « اللهم وفقنى إلى التعبير عن حىى لك فيما أنشئ » (١).

إن « التربية الأخلاقية خير وسيلة لبناء خير فرد وخير مجتمع وخير حضارة ، وهذا أمر لا بد منه لسلام الحياة الاجتماعية والاقتصادية واستقرارها أولاً ثم لسعادتها ثانياً .

إن التربية الأخلاقية ضرورية لبناء دولة قوية منظمة يعمل موظفوها بأمانة ونزاهة فيؤدون واجباتهم كاملة لكل مواطن على السواء دون محاباة أو رشوة أو أية تفرقة أخرى .

وإن أى دولة لاتسود التربية الأخلاقية أفرادها محكوم عليها بالانهيار والسقوط ، وذلك نتيجة لما تصاب به الدوائر بالشلل الوظيفى لعدم أداء الموظفين والعمال أعمالهم .

فإذا « غرست الروح الإنسانية الخيرة أدت إلى انتشار الأمن والثقة والمحبة والمودة واحترام الحقوق والكلمة والمشاعر لكل فرد ، ثم تسود روح الأخوة وروح التعاون فى سبيل الخير والمصلحة العامة » (٢).

كما سبق يتبين لنا أهمية الأخلاق كمتغير مهم عند دراسة تطور المجتمعات ونموها ، وضرورة أخذها فى الاعتبار لدفع العمليات التنموية فى البلاد .

**ولكن الباحث يود أن يشير إلى نقطتين أساسيتين :**

**النقطة الأولى :** « وهى تلك النظرة الاقتصادية إلى الأخلاق وقيمتها الرفيعة وهى نظرة تهبط ولاشك بمنزلة الأخلاق ؛ من حيث إنها قيمة عليا يضحق المرء فى سبيلها بكل مرتخص وغال ، لتصبح فى منزلة أدنى من الاقتصاد ومن النمو الاقتصادى ، هى منزلة الخادم الذى يستغله الاقتصاد أسوأ استغلال ، وعندما يتعارض المبدأ الاقتصادى مع المبدأ الأخلاقى ، فلاشك أن العقل يحكم بأن نضحي بالأدنى من أجل الأعلى ، ومن هنا نجد التضحية بالأخلاق فى سوق الاقتصاد أمراً طبيعياً ، إن اتجاه الاقتصاد إلى الناحية الأخلاقية ليس تقديراً للأخلاق فى حد ذاتها باعتبارها قيمة إنسانية رفيعة ،

(١) عبد الرحمن النقيب : « مدخل لدراسة الاتجاه الحرفى والمهنى فى التربية الإسلامية » بحوث فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ ، نقلها من سيد أحمد عثمان : « مقدمة » أزمة علم النفس المعاصر لجيمس ديز ، ترجمة سيد أحمد عثمان ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ١٢-١٤ .

(٢) حسين آتاي : النظام الأخلاقى فى السياسة المالية ، مجلة المسلم المعاصر ، السنة الثالثة عشر ، العدد الحادى والخمسون ، رجب ، شعبان ، رمضان ، ١٤٠٨ هـ ، ص ٩٢ .

ولكن من حيث إنها ضرورية من أجل عملية التنمية ، وهذا ما يجعلها فى المنزلة الدنيا ، وعندما يجد الاقتصاديون أن مثل هذه القيم قد تحول بينهم وبين هدفهم فى سرعة التنمية ، فمن السهل أن يستغنوا عنها وأن يضحوا بها ؛ لأنها لم تحقق لهم الغرض المقصود منها .

والاتجاه إلى استعمال الأخلاق فى خدمة الاقتصاد يتطلب التركيز على بعض القيم ، وإهمال بعض القيم بحسب ما يبدو لرجال الاقتصاد من فائدة ، والتاجر الذى يستعمل الصدق وشرف المعاملة لا من أجل الصدق والشرف بل من أجل الربح وحده لا يلبث حين يجد الربح الوفير بوسيلة أخرى غير الصدق والشرف ، لا يلبث أن يهجر الصدق والشرف ؛ لأنه فى الحقيقة لم يتصف فى نفسه بهذه الأخلاق ، وإنما استعملها فقط حين وجد الفائدة فى استعمالها ، وبهذا تتعرض عملية التنمية ، ولاتسير فى طريق مستقيم .

والفضائل الأخلاقية بهذه الصورة قابلة للتغير والتبدل لا من الأعلى إلى الأدنى فحسب ، بل من الضد إلى الضد ، ومن النقيض إلى النقيض ، وبهذا تصبح الفضائل الأخلاقية نسبة غير ثابتة بحال ، وبهذا لاتصبح هناك أخلاق إنسانية مشتركة ، وإنما يمكن أن نقول : إنها أخلاق اقتصادية فحسب .

إن هذه الأخلاق ليست هى الأخلاق التى يريدونها علماء الأخلاق ، وليست - بالقطع - هى الأخلاق التى أعلى من شأنها الإسلام .

إن الأخلاق التى نحبها ونلتزمها لغاية أو لغرض دنيوى تتغير حين يتغير هذا الغرض ، وبذلك تزول قيمتها ، ويفسد معناها ، أما الأخلاق الإسلامية فهى التى يلتزمها المرء بغاية عليا وأهداف مثلى ويضحى من أجلها بالأعراض المادية والدنيوية .

ومع ذلك « فإن التزامها يؤدى ولاشك إلى ما يريده الاقتصاديون من الإسراع بعملية التنمية ، وعندئذ تقف عملية التنمية بثبات على أرض صلبة ثابتة ، وتغضى فى طريقها بغير تعثر ، وتصل إلى غايتها بأقل جهد مطلوب ، وبأسرع وقت ممكن وتمضى عجلة التنمية فى طريقها » (١) .

**النقطة الثانية :** « إن الاقتصاديين قد قصرُوا نظرتهم على تلك الأخلاق التى تساعد على عملية التنمية وسرعة إنجازها ، وأهمَلُوا تلك الأخلاق التى ينبغى أن تصاحب عملية التنمية ، ذلك أن التنمية يقصد بها تحقيق أهداف ، هذه الأهداف قد تتفق مع القيم الأخلاقية الإنسانية وقد تتعارض معها ، والبحث عن الأخلاق التى تساعد على

---

(١) عبد الفتاح عبد الله بركة : تعقيب على بحث الأخلاق والتنمية ، أبحاث ندوة إسهام الفكر الإسلامى فى الاقتصاد المعاصر ، مجلة المسلم المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٥٦٣ .

التنمية بصرف النظر عن طبيعية هذه التنمية وأهدافها موقف غير أخلاقي ، ولاشك أن هذا الموقف قد نشأ بسبب اعتبار الأخلاق وسيلة للتنمية لا غاية من غاياتها .

كما ترتب ذلك كله على ذلك الأصل العتيق الذى ينظر إلى الاقتصاد نظرة متعالية عن العواطف الإنسانية والمبادئ الأخلاقية . ففصلته فصلاً تعسفياً عن ذلك كله ، وأصبح الاقتصاد يخدم أهدافاً غير أخلاقية ، وبعبارة أخرى غير إنسانية ، وماتزال هذه النظرة كامنة عند الاقتصاديين حتى وهم يبحثون فى كيفية استغلال الأخلاق استغلالاً اقتصادياً .

لذا يجب التركيز على ضرورة عدم فصل التنمية عن أساسها الأخلاقى سواء فى منطلقاتها الأولى التى تبدأ منها ، أو فى غاياتها الأخيرة التى ترمى إليها ، أو فى وسائل تحقيقها التى تعتمد عليها ، وأن تكون النظرة إلى الاقتصاد نظرة أخلاقية كما ينبغى أن يكون ، لا أن تكون النظرة إلى الأخلاق نظرة اقتصادية كما يريد الاقتصاديون « (١) .

إن الإسلام حين يدعو المسلم إلى التمهّن فهو يدعوه أيضاً إلى أن يؤدى حق الله فى مهنته ، وفى الوقت الذى يدعو التجار للانتشار ، وابتغاء فضل الله يحذرهم من الغش ويدعوهم إلى الأمانة والوفاء بالعهد والصدق ، وعدم الاحتكار ، وإيفاء الكيل وغير ذلك من الأخلاقيات التى ستأول أهمها واحدة بعد الأخرى كما يلى :

### نية العمل :

فليّنو المسلم بحرفته أو مهنته الاستغفاف عن السؤال واستعانتة بما يكسبه على الدين وقيامه بكفاية أهل بيته ، وليّنو وجه الله تعالى فى كل عمل ، فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل لا ثمرة له فى الآخرة .

وقد جعل الرسول ﷺ النية كأساس لتقبل الأعمال جميعاً فقال : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (٢) .

وفى رواية أخرى يقول ﷺ : « الأعمال بالنية ولكل امرئ ما نوى » (٣) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكْلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ (٨٤)

[الإسراء] أى : على نيته (٤) .

فواجب المسلم أن ينوى بحرفته أو مهنته وجه الله وثوابه ، ويوضح لنا رسول الله

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦٤ .

(٢) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢١ ( باب الأعمال بالنيات ) .

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢١ .

ﷺ هذا المعنى فى قوله : « إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة » (١) .

ومما قاله السلف فى النية : « تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل » ، وعن أحد الصالحين أنه قال : « صلاح القلب بصلاح العمل ، وصلاح العمل بصلاح النية » ، وعن بعض السلف قال : « من سره أن يكمل له عمله فليحسن نيته » ، وعن ابن المبارك قال : « رب عمل صغير تعظمه النية » (٢) .

لذا ينبغي على المسلم أن تكون حرفته فى ظاهرها موافقة السنة وفى باطنها يقصد بها وجه الله عزوجل . وقد « قرر الإسلام أن كل الأعمال واللذات الطيبة يجوز أن تتحول إلى عبادة إذا قدمت أمامها النية الخالصة فى حفظ هبة الحياة والانتفاع بها واحترام إرادة واهبها » (٣) .

فصلاح « النية وإخلاص القلب لرب العالمين ، يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوى البحت فيجعلانه عبادة متقبلة ، وإن خبث الطوية يهبط بالطاعات المحضة فيقلبها معاصى شائنة فلا ينال المرء منها شىء بعد التعب فى أدائها إلا الفشل والخسارة » (٤) .

والحق « أن المرء مادام قد أسلم وجهه وأخلص نيته ، فإن حركاته وسكناته تحسب خطوات إلى مرضاة الله ، وقد يعجز عن عمل الخير الذى يصبو إليه لقلته ماله أو لضعف صحته ، ولكن الله المطلع على خبايا النفوس يرفع الحريص على الإصلاح إلى مراتب المصلحين ، والراغب فى الجهاد إلى مراتب المجاهدين ؛ لأن بعد نيتهم أرجح لديه من عجز وسائلهم » (٥) .

### تجنب النجش :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « نهى النبى ﷺ عن النجش » (٦) ، « والنجش بفتح النون وسكون الجيم بعدها معجمة ، وهو فى اللغة : تنفير الصيد واستنارته من مكانه ليصاد ، وفى الشرع : الزيادة فى ثمن السلعة ممن لا يريد شراءها ليقع غيره فيها ، سمي بذلك ؛ لأن الناجش يثير الرغبة فى السلعة ويقع ذلك بمواطأة البائع فيشتركان فى الإثم ، ويقع ذلك بغير علم البائع فيختص بذلك الناجش ، وقد يختص به البائع كمن يخبر بأنه اشترى سلعة بأكثر مما اشتراها به ليغير غيره بذلك . وقد أجمع العلماء على أن الناجش

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) أبوحذيفة إبراهيم بن محمد : آداب التاجر وشروط التجارة ، مرجع سابق ، ص ٢٨ .

(٣) عبد المنعم محمد خلاف : المادية الإسلامية وأبعادها ، مرجع سابق ، ص ١٦٣ .

(٤) سيد عبد الحميد مرسى : الدين للحياة ، سلسلة دراسات إسلامية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ ، ص ٧٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٧٥ .

(٦) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٩١ ( كتاب البيوع ) .

عاص بفعله « (١)؛ لأن النجش خديعة ، وتحريم الخديعة واضح لكل أحد (٢) ، وقد قال رسول الله ﷺ : « الخديعة فى النار ، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (٣) .

وقد « قال ابن أبى أوفى : الناجش أكل ربا خائن وهو خداع باطل » (٤) ، وفى مواضع كثيرة كان « يقول رسول الله ﷺ : « لا يبيع المرء على بيع أخيه ولا تلتاحشوا ولا يبيع حاضر لباد » (٥) .

إن النجش من القيم الرديئة التى حض رسول الله ﷺ على تجنبها ، « عن أبى هريرة رضيه الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن التلقى ، وأن يبتاع المهاجر للأعرابى ، وأن تشترط المرأة طلاق أختها ، وأن يستام الرجل على سوم أخيه ، ونهى عن النجش وعن التصرية » (٦) .

إنه نهى يشمل العديد من الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها كل من البائع والمشتري .

### الصدق :

على صاحب الحرفة أو المهنة أن يتحرى الصدق فإنه رأس ماله ، وعن الرسول ﷺ أنه قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (٧) .

وصدق الحديث محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين : « وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا » (٥٤) [ مريم ] ، وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل « فوصفه بصدق الوعد ؛ لأنه لم يعد شيئاً إلا وفى به » (٨) .

والرسول ﷺ يبين لنا فضل التجارة التى تقوم على الصدق فيقول : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » (٩) ، « وقوله : ( صدقا ) أى من جانب البائع من السوم ومن جانب المشتري فى الوفاء ، وقوله : ( وبينا ) أى لما فى الثمن والمثمن من عيب فهو من جانبيهما ، وفى الحديث حدوث البركة لهما إذا حصل منهما الشرط وهو الصدق والتبين ، ومحققا إن

(١) سعد المرفعى : العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

(٢) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٤١٦ ( كتاب البيوع ) .

(٣) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٩١ ( كتاب البيوع ) باب النجش .

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة . (٥) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٩٤ .

(٦) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥١ ( باب الشروط فى الطلاق ) .

(٧) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٥ ( كتاب الإيمان ) .

(٨) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١١ ، ص ١١٥ .

(٩) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧٦ .

وجد ضدهما وهو الكذب والكتم ، وإن كان الأجر ثابتاً للصادق الأمين والوزير حاصل للكاذب الكاتم « (١) .

والواقع الذى لاشك فيه أن التزام الصدق كما « يقول ابن القيم كحمل الجبال الرواسى لا يطيقه إلا أصحاب العزائم ، والمؤمنون الحقيقيون هم الذين يحرصون على هذا الصدق » (٢) فى تعاملاتهم . ووجب على التاجر المسلم أن يتحرى الصدق فى البيع والشراء « فإذا اشترى التاجر ثوباً بعشرة دراهم ثم قصره بدرهم وطرزه بدرهم ورفاه بدرهم ، فإنه لا يقول : اشترته بثلاثة عشر درهماً ؛ لأنه يكون كاذباً ، بل يقول : قام على بثلاثة عشر درهماً ؛ لأن عمل الإنسان لا يقوم عليه ، ولا يقول : رأس ماله ثلاثة عشر درهماً ؛ لأنه يكون كاذباً ، بل يقول : اشترته بعشرة دراهم ، وعملت فيه عملاً يساوى ثلاثة دراهم » (٣) .

« إن الصدق فى العمل ليس واجباً مطلوباً فحسب بل هو فى نظر الإسلام عبادة » (٤) .

### تجنب الغش :

إن الصدق يستوجب من التاجر عدم إخفاء عيب فى التجارة حتى يكون لكل من البائع والمشتري حق الخيار فى الصفقة ، كما يجب على صاحب الحرفة أو المهنة أن يظهر ما فى سلعته من عيوب ولا يخفيها فقد « مر عليه السلام على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام ؟ » قال : أصابته السماء يارسول الله ، قال : « أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس ، من غش فليس منى » (٥) .

وعن العداء بن خالد قال : كتب لى النبى ﷺ : « هذا ما اشترى محمد رسول الله ﷺ من العداء بن خالد بيع المسلم من المسلم ، لا داء ولا خبثة ولا غائلة » (٦) . وقوله : « ( بيع المسلم للمسلم ) فيه أنه ليس من شأن المسلم الخديعة ، وقوله : ( لا داء ) أى : لا عيب يكتمه البائع ، ( ولا خبثة ) أى : المراد الحرام ، ( والغائلة ) : الزنا والسرقة والإباق » (٧) .

« وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن رجلاً ذكر للنبي ﷺ أنه يخدع فى البيوع فقال :

(١) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٣٦٤ .

(٢) أبو حذيفة إبراهيم بن محمد : آداب التاجر وشروط التجارة ، مرجع سابق ، ص ٣٤ .

(٣) عبد الرحمن الشيرازى : نهاية الرتبة فى طلب الحسنة ، مرجع سابق ، ص ٦٣ .

(٤) سيد عبد الحميد مرسى : الشخصية المتعة ، مرجع سابق ، ص ١٦١ .

(٥) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٦٩ .

(٦) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧٦ ( باب إذا بين البيعان ) ، ولم يكتموا ونصحا ) .

(٧) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ج ٤ ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

« إذا بايعت فقل : لا خلافة » <sup>(١)</sup> ، وقوله : ( لا خلافة ) بكسر المعجمة وتخفيف اللام أى : لا خديعة و ( لا ) لنفى الجنس أى : لا خديعة فى الدين ؛ لأن الدين النصيحة » <sup>(٢)</sup> .  
**تجنب الحلف :**

وجب على صاحب الحرفة أو المهنة أن يتجنب الحلف ولو كان صادقاً ، فقد نهى الله عز وجل عن ذلك فقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٤] . وفى التحذير من هذا الخلق الذى يدل على عدم الثقة ويستثير الشك جاء فى الحديث : « الحلف منفقة للسلعة محقة للبركة » <sup>(٣)</sup> ، وفى رواية أخرى يقول ﷺ : « الحلف منفقة للسلعة محقة للربح » <sup>(٤)</sup> ، ونهانا عن كثرة الحلف قائلا : « إياكم وكثرة الحلف فى البيع فإنه ينفق ثم يمحق » <sup>(٥)</sup> .

وإذا كنا قد أمرنا بالنهى عن الحلف فى البيع وإن كان صادقاً ، فإن بعدنا عن الحلف الكاذب ألزم وأوجب ، وقد حذرنا من ذلك رسول الله ﷺ قائلاً : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » قال : فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار ، قال أبو ذر : خابوا وخسروا من هم يارسول الله ؟ قال : « المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » <sup>(٦)</sup> .

وعن عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه « أن رجلاً أقام سلعة وهو فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بها مالم يعط ليوثق فيها رجلاً من المسلمين » <sup>(٧)</sup> فنزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٧) « [ آل عمران ] .

### تجنب الاحتكار للسلعة :

« المقصود بالاحتكار : ادخار السلعة وجمعها وحبسها يتربص بها الغلاء مع احتياج الناس لها » <sup>(٨)</sup> .

« والاحتكار حرام بالإجماع فى ضرورات الحياة ، مكروه فى كمالياتها ، ويمكن أن يلحق بالأقوات مما يترتب على احتكاره تلف وهلاك يصيب الناس كاحتكار الثياب فى

(١) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى شرح صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ .

(٣) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٨ ( كتاب البيوع ) .

(٤) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٥٦ .

(٥) المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٥٧ .

(٦) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٧١ .

(٧) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٨ ( باب ما يكره من الحلف فى البيع ) .

(٨) محمد بن أبى بكر الرازى : مختار الصحاح ، مرجع سابق ، ص ١٤٨ .

وقت البرد الشديد مع حاجة الناس إليها»<sup>(١)</sup> ، ومن الظلم ألا يبيع السلعة إلا أناس محدودون ، ولو باع غيرهم ذلك منعه ، ويقول الرسول ﷺ في شأن المحتكر : « لا يحتكر إلا خاطئ »<sup>(٢)</sup> ، « وكلمة خاطئ التي قالها الرسول ﷺ هي التي دفع بها القرآن الكريم الجبابة العتاة : فرعون وهامان وجنودهما »<sup>(٣)</sup> ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (٨) [ القصص ] .

«وما يلحق بالاحتكار ما نهى عنه النبي ﷺ من بيع الحاضر للبادي ، وصورة هذا - كما قال العلماء - أن يقدم غريب بمتاع نعم الحاجة إليه ، ليعه بسعر يومه ، فيأتيه ابن المدينة فيقول له : خل متاعك عندي حتى أبيع لك على المهلة بثمان غال ، ولو باع البادي بنفسه لأرخص ونفع أهل البلد وانتفع هو أيضاً »<sup>(٤)</sup> .

وكانت هذه الصورة منتشرة في مجتمعاتهم ؛ ولذلك « نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد »<sup>(٥)</sup> حتى يسد باب الاحتكار . وفي رواية أخرى يقول ﷺ : « لا يبيع بعضكم على بيع بعض ولا تلقوا السلع حتى يهبط بها إلى السوق »<sup>(٦)</sup> . إن للاحتكار أضراراً عدة وهي حرمان أصحاب الدخل المحدود من السلع في بعض الحالات فتقع على المستهلك ؛ لأنه لا يصل إلى السلعة التي يريد استهلاكها في بعض الحالات ؛ لأنه يدفع أحياناً أضعاف ثمنها ، وبذلك يستنفذ جزءاً من دخله كان من الممكن توجيهه لاستهلاك سلع أو خدمات أخرى مما يؤدي إلى هبوط مستوى معيشته . وعلى المجتمع ؛ لأن الاحتكار يثير الحقد والكراهية بين طائفة المستهلكين وطائفة المحتكرين ، وعلى المحتكر نفسه فتكون كما يقول ابن خلدون : « شؤم على صاحبه ويعود عليه بالتلف والخسران »<sup>(٧)</sup> .

وما يتميز به الاقتصاد الإسلامي تحريم الاحتكار ، ودور الدولة هنا يأتي في أنها تنفذ شريعة الله تعالى ، فتمنع الاحتكار بطريقة عملية فتستولي على الأشياء المحتكرة وتبيعها مع إعطاء صاحبها الثمن الذي يحقق العدل للبائع والمشتري والذي يعتبر مناسباً أو تجبر المحتكر على البيع بالثمن المناسب ؛ « لأن الخليفة كان إذا غلا السعر ترفق بالمسلمين فأمر بفتح مخازنه ، وأن يباع بأقل مما يبيع الناس حتى يرجع الناس عن غلوهم

(١) سعد المرصفي : العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

(٢) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٥٦ .

(٣) سعد المرصفي : العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

(٤) سعد المرصفي : العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ .

(٥) الإمام البخاري : صحيح البخاري ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٩٤ ( باب من كره أن يبيع حاضر لباد بأجر ) .

(٦) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٩٥ .

(٧) قطب إبراهيم محمد : الإطار الأخلاقي لمالية المسلم ، مرجع سابق ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

فى الأثمان ، ثم يأمر مرة أخرى أن يباع بأقل من ذلك حتى يرجع السعر إلى أوله أو القدر الذى يصلح للناس ، حتى يغلب الجالبين والمحتررين بهذا الفعل ، وكان ذلك من حسن نظره « (١) .

### الوفاء بالكيل والميزان :

التاجر المسلم إذا كال أو وزن لا يأخذ أكثر من حقه ، ولا يعطى الناس أقل من استحقاقهم فإن التاجر إذا طفف فى كيله أو وزنه بأن زاد على ما أخذ ، أو نقص مما أعطى ، تضعف ثقة الناس به وينصرفون عن معاملته وينفضون من حوله فتحسر حرفته أو تجارته ويكسر سوقه (٢) . هذا إلى جانب عذاب الله الاليم الذى أعد له فى الآخرة فقال تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ [المطففين] « يعنى : كالوا لهم ووزنوا لهم » (٣) .

« والمراد بالتطفيف البخس فى المكيال والميزان إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاهم ، وويل : تعنى الوعد بالخسارة والهلاك » (٤) . وقد نصح شعبياً أصحاب الأيكة بالوفاء بالكيل والوزن حتى تستقيم حياتهم فقال لهم : ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾ [الشعراء] . وفى موضع آخر : يقول تعالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤)﴾ [هود] .

أى وأرسلنا إلى مدين (قوم شعيب) « أمرين إياهم بالإيمان إقلاعاً عن الشرك وبالوفاء نهياً عن التطفيف ، فقد كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف ، فكانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد ، واستوفوا بغاية ما يقدرون عليه وظلموا » (٥) ، ولذلك نهاهم الله سبحانه وتعالى عن التطفيف .

إن سرد النهى عن نقصان المكيال والميزان بعد الأمر بالإيمان بالله ليبين لنا مدى أهمية النهى عن التطفيف ، ومدى الارتباط بين كل من الإيمان والوفاء بالكيل والميزان «وقد أمر الله بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيداً ، والإيفاء يعنى : الإتمام » (٦) .

(١) يحيى بن شرف النووى : صحيح مسلم بشرح النووى ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(٢) أبو حذيفة إبراهيم بن محمد : آداب التاجر وشروط التجارة ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٩ ، ص ١٦٤ .

(٤) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٤٨٣ .

(٥) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٩ ، ص ٨٥ .

(٦) المرجع السابق ، ج ٩ ، ص ٨٦ .

فقال تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْدُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥)﴾ [ هود ] . وقد « أخذ شعيب قومه بالرفق وبالحوار الهادئ حين أمره بالعصيان في البخس والتطفيف وقد أغناه الله عنه » (١) . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ [ هود ] فقد كانت صفة أساسية في الأنبياء أن يوفوا الكيل والميزان ؛ ولذلك كان عجباً أن يأمر أهل مدين شعيب بالتطفيف .

إن التاجر المسلم وجب عليه أن يتأسى بالرسول فهم القدوة والاسوة ، قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩)﴾ [ يوسف ] فقد « كال لإخوته بمكيال واف وقد وفاهم كيلهم في المال » (٢) .

وقد طلب إخوة يوسف الوفاء في الكيل في قولهم : ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)﴾ [ يوسف ] أى : يا يوسف « كما تبع بالدرهم الجياد لاتقصنا بمكان دراهمنا » (٣) ، وقد استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع ، قالوا ليوسف : فأوف لنا الكيل ، أى : « كان يوسف هو الذي يكيل ، وكذلك الزان والعداد وغيرهم ؛ لأن الرجل إذا باع عدة معلومة من طعام وأوجب العقد عليه وجب عليه أن يبرزها ويميز حق المشتري من حقه » (٤) .

ومما يدعم الرأي بأن الكيل على البائع قول الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥)﴾ [ الإسراء ] « والقسطاس : الميزان بلغة الروم ، كما تقضى الآية أن الكيل على البائع » (٥) .

وقد حذر الله - سبحانه وتعالى - من بخس الناس أشياءهم في أكثر من موضع فقال تعالى : ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٨٥)﴾ [ الاعراف ] .

« والبخس : النقص وهو ما يكون في السلعة بالتعيب والزهد فيها ، أو المخادعة عن القيمة ، والاحتياال في التزيد في الكيل والنقصان منه ، وكل ذلك منهى عنه في

(١) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٩ ، ص ٨٩ .

(٢) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١١ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٩ ، ص ٥٤ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٩ ، ص ٥٤ .

(٥) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٠ ، ص ٢٥٧ .

الأمم المتقدمة والسالفة على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين « (١) وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، أى : أوفوا بالاعتدال فى الأخذ والعطاء عند البيع والشراء .

وقوله تعالى: ﴿ لَا تُكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ « أى : طاقتها فى إيفاء الكيل والوزن ، وهذا يقتضى أن هذه الأوامر إنما هى فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز وما لا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكيلين ، وأما ما يدخل تحت قدرة البشر فمعموف عنه « (٢) .

« إن مرض تطفيف الكيل نوع من أنواع الفجور لا يصدر إلا عن شخص لا يظن أنه يبعث يوم القيامة ويحاسب على عمله ولو ظن البعث والحساب لا طفف الكيل ولا بخس الميزان « (٣) ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إن خياركم أحسنكم قضاء » (٤) .

وكان ﷺ يأمر باتخاذ المكيال فكان يقول : « كيلوا طعامكم ببارك لكم » (٥) و« اكتالوا حتى تستوفوا » ، ويذكر عن عثمان رضي الله عنه أن النبی ﷺ قال : « إذا بعث فكل وإذا ابتعت فاكتل » (٦) .

وكان ﷺ يدعو لمكة كما دعا إبراهيم عليه السلام فقال : « اللهم بارك لهم فى مكيالهم وبارك لهم فى صاعهم ومدهم » (٧) مما يدل على استخدام المكايل والموازين فى العصر الإسلامى الأول .

وكان ﷺ يأمر بالوزن أيضا فكان يقول : « لا تبعوا الذهب بالذهب ولا الورق بالورق إلا وزناً بوزن مثلاً بمثل سواء بسواء » (٨) .

وقد اعتنى الفقه الإسلامى بتعريف القناطير والأرطال والمثاقيل والدراهم ؛ لأنها أصول المعاملات وبها اعتبار المبيعات ، وإن كانت تختلف من إقليم لإقليم ومن بلد إلى بلد فهى تتفاضل فى الزيادة والنقصان (٩) .

وقد وضع المسلمون الاوائل شروطاً للموازين فقالوا : أصح الموازين وضعاً ما

(١) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٧ ، ص ٢٤٨ .

(٢) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٧ ، ص ١٣٦ .

(٣) أبو حذيفة إبراهيم بن محمد : آداب التاجر وشروط التجارة ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

(٤) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٣٠ ( كتاب الوكالة ) باب وكالة الشاهد والغائب جائزة .

(٥) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٨٨ .

(٦) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٨٩ .

(٧) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٤٢ .

(٨) عبد الرحمن الشيرازى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

استوى جانباه واعتدلت كفتاه ، والمكيال الصحيح ما استوى أعلاه وأسفله فى الفتح والسعة من غير أن يكون ضيقاً فى الوسط ولا مائلاً ولا بعضه داخلًا وبعضه خارجاً ، وإن كان فى أسفله طوق من حديد كان أحفظ له .

وينبغى للمحتسب أن يجدد النظر فى المكايل و يراعى ما يطففون به المكيال ، فإن من البائعين من يصب فى أسفله الجبين فيلصق به لصقاً لا يكاد يعرف ، ومنهم من يأخذ لبن التين ويعجنه بالزيت حتى يصر فى قوام المرهم ، ثم يلصقه فى داخل المكيال فلا يعرف (١) .

« إن الكياليين لاخير فيهم لاسيما فى هذا الزمان ؛ لأن أكثرهم يكتال ما يقبضه زائداً وعند الصرف يجعله ناقصاً ؛ ولذلك ينبغى على المحتسب أو من يقوم مقامه أن يحذرهم ويخوفهم عقوبة الله تعالى وينهاهم عن البخس والتطفيف » (٢) .

والحسبة من قواعد الأمور الدينية ، وقد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها ، وهى أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله بين الناس .

والمحتسب : من نصبه الإمام أو نائبه للنظر فى أحوال الرعية والكشف عن أمورهم ومصالحهم .

#### اتقاء الشبهات :

ينبغى على صاحب الحرفة أو المهنة أن يتقى مواقع الشبهات وليعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا ، وها هو رسول الله ﷺ يقول : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة ، فمن ترك ماشبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ، ومن اجتراً على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصى حمى الله من وقع حول الحمى يوشك أن يواقعه » (٣) .

وقال أيضاً : « إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبّهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » (٤) .

وقال الحسن : مازالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٢) ابن الإخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، مرجع سابق ، ص ٨٦ .

(٣) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٠ (كتاب البيوع) .

(٤) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٥٠ ، ٥١ .

« وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : إنى لأحب أن أدع بينى وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها، وقال ميمون بن مهران : لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، وقال سفيان بن عيينة : لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه » (١).

« وعن بعض السلف أنه كان بواسط ، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله بع : هذا الطعام يوم يدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى غد ، فوافق ذلك سعة في السعر فقال له التجار : وإن أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة ، فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحبه بذلك ، فكتب إليه صاحب الطعام ، يا هذا ، إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت ، وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين ، فقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال كله فصدق به على فقراء البصرة، وليتنى أنجو من إثم الاحتكار كفانا لا لى ولا على » (٢).

وما أحوج تربيتنا اليوم إلى التربية بالقنوة إنها حقاً نماذج تستحق منا الدراسة والتمحيص وتدريسها فى مدارسنا ، حتى ينشأ جيل فاهم لدينه .

### الوفاء بالعهد :

ينبغى على صاحب الحرفة أو المهنة الوفاء بالعهد ، وإن من الأمانة الوفاء بالعهد ، يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٨) ﴿ [ المؤمنون ] » والأمانة والعهد تجمع كل ما يحمله الإنسان من أمور دينه ودنياه قولاً وفعلًا ، وإن كانت الأمانة أعم من العهد وكل عهد فهو أمانة » (٣).

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهد ، ودعا الإسلام طرفى العقد إلى الوفاء بما تعاقدا أو تعاهدوا عليه ، وذلك كما يتبين من الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [ المائدة : ١ ] ويعنى ذلك عقد الدين ، وهى ما عقده المرء على نفسه من بيع وشراء وإجارة وكراء ومزارعة ومصالحة وتخليك وعتق وغير ذلك من الأمور ، ما كان ذلك غير خارج عن الشريعة (٤) .

ولأن رسول الله ﷺ يقول : « كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط » (٥) . فبين أن الشرط أو العقد الذى يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله ، فإن ظهر ما يخالف رد .

(١) أبو حذيفة إبراهيم بن محمد : آداب التاجر وشروط التجارة ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ .

(٢) عبد الرحمن الشيرزى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

(٣) الإمام القرطبى : الجامع لاحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٢ ، ص ١٠٧ .

(٤) الإمام القرطبى : الجامع لاحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٦ ، ص ٣٢ .

(٥) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)﴾ [الرعد] والمعنى : الذين يوفون بجميع عهود الله وهى أوامره ونواهيه التى وصى بها عبيده ، وقوله : ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ يحتمل أن يريد به جنس الميثاق أى إذا عقدوا فى طاعة الله عهداً لم ينقضوه <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤)﴾ [الإسراء] ، وأكد سبحانه وتعالى على الوفاء بالعهد فقال : ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمُ صَاحِبُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)﴾ [الأنعام] « وهذه الآية عامة فى جميع ما انعقد بين إنسانين » <sup>(٢)</sup> .

ولما ذكر الله المؤمنين بالوفاء بعهودهم حذرهم من إتيان النقيض وهو عدم الوفاء بالعهد فقال : ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾ [الرعد] «ونقض الميثاق ترك أمره» <sup>(٣)</sup> وعدم تنفيذ ما جاء به .

إن صاحب الحرفة أو المهنة المسلم وجب عليه أن يلتزم بالعهد مهما كانت الظروف التى تعوق تنفيذ العهد ، بل وجب عليه أن يحاول التغلب عليها ، حتى يستطيع أن يوفى بوعده ، حتى وإن ظن أن الوفاء بالعهد قد يخسره القليل فى تجارته ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى : « لا تنقضوا عهودكم لعرض قليل من الدنيا » <sup>(٤)</sup> .

وقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)﴾ [النحل] « فقلوه : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان بالعدل والإحسان » <sup>(٥)</sup> .

ثم شدد الله - سبحانه وتعالى - على الناقض للعهد فجعله كالناقض للأيمان ؛ لأن الأيمان والوفاء بالعهد شيان مترابطان ، فقال : ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ « أى : بعد تشديدها وتغليظها وقد جعلتم الله عليكم شهيدا » <sup>(٦)</sup> . ولقد وعد الله سبحانه وتعالى بالاجر العظيم للموفون بعهدهم فقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ

(١) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٩ ، ص ٣٠٧ .

(٢) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٧ ، ص ١٣٧ .

(٣) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٠ ، ص ١٦٩ .

(٤) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ .

(٥) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٠ ، ص ١٦٩ .

(٦) المرجع السابق والجزء ، ص ١٧٠ .

فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ [ الفتح ] ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [ الصف ] « استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان ما لا يفعله ، وقد يحتج بها في وجوب الوفاء في اللجاج والغضب » (١).

وقد طلب الله - سبحانه وتعالى - من بنى إسرائيل الوفاء بالعهد فقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [ البقرة ] والمعنى « أن أوفوا بعهدكم إياي بالإيمان أوف بعهدى لكم بأن أرضى عنكم وأدخلكم الجنة » (٢).

حقاً إنها ثمرة طيبة للوفاء بالعهد ألا وهى الجنة ، ويشئى الله على المؤمنين بعهدهم فيقول : ﴿ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [ البقرة : ١١٧ ] أى : « فيما بينهم وبين الله تعالى وفيما بينهم وبين الناس » (٣) ، فإذا أبرم المسلم عقداً فيجب أن يحترمه ، وإذا أعطى عهداً فيجب أن يلتزمه ، ومن الإيمان أن يكون المرء عند كلمته التى قالها ، فيعرف بين الناس بأن كلمته ميثاق غليظ لاخوف من نقضها .

والوفاء بالعهد يحتاج إلى عشرين ، إذا اكتملا فى النفس سهل عليها أن تنجز ما التزمت به ، فإن الله أخذ على آدم أبى البشر عهداً مؤكداً ألا يقرب الشجرة المحرمة ؛ لكن آدم ما لبث أن نسى وضعف ، ثم نكث فى عهده : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [ طه ] « ونسى هنا من السهو والنسيان ، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس » (٤).

فضعف الذاكرة وضعف العزيمة ، عائقان كثيفان عن الوفاء بالواجب ، والإنسان لتجدد الحوادث أمامه ، وترادف الهموم المختلفة عليه ، يفعل الزمان فعله العجيب فى نفسه فتخبو المعالم الواضحة ، ويحس ما كان بارزاً فى نفسه لا يكاد يبين ؛ ولذلك فإن الذكر المطرد اليقظ ، ضرورة لازمة للوفاء . فمن أين لناسى العهد أن يفى به ؟ لذلك ختمت آية العهد بعنصر التركيز : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [ الانعام ] ، فإذا ذكر الإنسان الميثاق المأخوذ عليه يجب أن ينضم إلى هذا الذكر عزم شدد على إنفاذه (٥).

### السماحة فى البيع والشراء وإنظار المعسر :

من قيم التجارة إنظار المعسر ، ولا يخفى مافى هذه القيمة من دعم العلاقات الطيبة

(١) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٨ ، ص ٨٠ ، ٨١ .

(٢) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٨٣ .

(٣) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

(٤) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١١ ، ص ٢٥١ .

(٥) محمد الغزالي : خلق المسلم ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، عابدين ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، ص ٥٢ .

بين الناس ، وسبيل إلى مغفرة الله تعالى ، جاء فى الحديث : « تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم فقالوا : أعملت من الخير شيئاً ؟ قال : لا . قالوا : تذكر ، قال : كنت أدين الناس فأمر فتيانى أن ينظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر ، قال : قال الله عز وجل : تجاوزوا عنه » (١) .

وفى رواية أخرى : « عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان رجل يدين الناس فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه » (٢) ، أى أن الإسلام يدعو إلى إنظار المعسر ويجعل جزاء ذلك عفو الله عن ناظر المعسر ، كما يدعو الإسلام إلى السهولة والسماحة فى البيع والشراء والتقاضى فيقول ﷺ : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى » (٣) « والسماحة : الجود ، والسمح : الجواد ، والمسامحة : المساهلة ، وتسامحوا : تساهلوا » (٤) « وقوله : إذا اقتضى أى طلب قضاء حقه بسهولة وعدم إلحاف ، وخلاصة الحديث أنه يحض على السماحة فى المعاملة واستعمال معالى الأخلاق وترك المشاحنة ، والحض على ترك التضييق على الناس فى المطالبة وأخذ العفو منهم » (٥) ، وليس للسماحة نطاق محدد وإنما هى تنبع من الأخوة الإسلامية التى تؤدى للتعاطف والتراحم فى التعامل بين المسلمين .

ومن أمثلة السماحة فى البيع ما يلجأ إليه بعض التجار من منح خصم فى ثمن البيع إذا اشتروا بكميات كبيرة ، أو إذا كانوا من قدامى المتعاملين معهم ، أو التجاوز عن مصاريف نقل البضائع إن كانت يسيرة ، وعدم التدقيق فى الثمن بالنسبة لأصحاب السلع الهينة ؛ لأنهم يعيشون على رؤوس أموال ضئيلة كالباعة المتجولين الذين يطوفون الأرض طوال اليوم فى توزيع وبيع ما يحملون على رؤوسهم وأكتافهم وبين أيديهم ، ويتربحون منه ما يفى لكفافهم وكفاف أسرهم ، والسماحة معهم عون خفى وتخفيف لوطأة الحياة عليهم وتنفيس كربهم ، ومن أمثلة سماحة المشتري أيضاً عدم التمسك بشراء نفس السلعة التى يعرضها البائع للإعلان عن سلعة بوضعها فى « فاترينة » مادام يحصل على سلعة مماثلة وبنفس الثمن مما هو موجود بمخزن البائع ؛ ذلك لأن التاجر يتكلف فى عرض سلعته نفقات فى تزيينها وإظهارها بالمظهر الذى يريد ويستخدم فى ذلك مختصين فى طرق العرض ومعرفة أذواق الجمهور ، ولو تمسك كل مشتر بأخذ عينة البضاعة المعروضة لأدى فى كل مرة إلى إعادة ترتيبها وتنسيقها ، مما يكلف التاجر نفقات لا مبرر

(١) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٣٢ ( كتاب البيوع ) .

(٢) المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٣٣ .

(٣) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٥ ( باب السهولة والسماحة فى الشراء والبيع ) .

(٤) محمد بن أبى بكر الرازى : مختار الصحاح ، مرجع سابق ، ص ٣١٢ .

(٥) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٣٥٩ .

لها وضياح الوقت، ومما يحدث من سماحة بعض التجار ورغبة منهم فى استرضاء المشترين أن يسلموهم السلعة المعروضة .

ومن أمثلة سماحة الاقتضاء فى التجارة أن يسر البائع على المشتري فى سداد ثمن السلعة فيقسطها عليه مراعيًا فى ذلك حالته المالية وأن يسر كذلك فى أجل السداد ، وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلاً على السماحة فقال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْكَ سَعْدِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢٧) [ القصص ] . فقد طلب شعيب عليه السلام من موسى عليه السلام كمهر لزوجته من ابنته أن يعمل عنده ثمان سنوات ، ومنعاً من المشقة عليه ترك له أن يتمم عشراً إذا أراد ، وكان من الممكن أن يلزمه بالعمل عشر سنوات ابتداء ، ولكنه أراد أن يطبق مبدأ السماحة فى الاقتضاء (١) .

والسماحة خلق كريم ولو علم التاجر مافيه من بركة لحاول جاهداً أن يتخلق بها ؛ لأن فى السماحة وسهولة التعامل مايسر التجارة ويرسى أسباب الثقة التى تنشط التداول وسرعة دوران رأس المال التى تؤدى إلى الرخاء للمجتمع كله وعلى رأسه التاجر (٢) .

إن « الإسلام يدعو إلى الرفق عامة وهو مايعبر عنه فى الاصطلاح الحديث بالعلاقات الإنسانية فأساس هذه العلاقات فى الإسلام هو المحبة والرفق والتسامح ، وباعتبار أن المسلم فى تعامله مع الناس إنما يتعامل أساساً مع الله تعالى » (٣) .

### التطوع بالعمل بدون أجر فى ظروف خاصة :

« تتطلب بعض الأحوال أن يتقدم العامل بعمله دون مقابل ابتغاء ثواب الله وتضامناً مع المجتمع فيما أصابه من ملومات أو شدائد أو كوارث ، فقد تمر بالوطن ظروف حرب فيعمل العمال ساعات عمل إضافية تطوعاً منهم للمساهمة فى المجهود الحربى ، أو تمر برب العمل ظروف كساد فيتضامن العاملون معه بالتطوع بجزء من وقتهم يعملون فيه دون أجر حتى يجتاز رب العمل ظروف الكساد التى تمر به ، وقد يتطلب إنجاز العمل نفسه وقتاً إضافياً فيتم العاملون بإنجاز أعمالهم المنوطة بهم بعد ساعات العمل الأصلية دون مقابل ، وقد تمتد دائرة التطوع إلى خارج الوطن نفسه ، فإذا اجتاحت أهل وطن شقيق كوارث كفيضانات أو حرائق أو سيول ، تطوع المحترفون بأعمالهم الحرفية لأبناء هذا الوطن ، وقد يكون التطوع بالعمل أو بجزء منه . والإسلام يبارك التطوع فى الخير حيث يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ [ البقرة : ١٨٤ ] .

(١) قطب إبراهيم محمد : الإطار الأخلاقى لمالية المسلم ، مرجع سابق ، ص ١٩٥ - ١٩٨ .

(٢) عبد السميع المصرى: التجارة فى الإسلام، الطبعة الثانية، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٤٦٠هـ - ١٩٨٦م ، ص ١٧ .

(٣) محمد شوقى الفنجرى : نحو اقتصاد إسلامى ، مرجع سابق ، ص ٩٠ .

كما تضمن القرآن الكريم على أمثلة أعمال تطوعية، منها ما حدث في قصة موسى عليه السلام عندما سار مع العبد الصالح الذي أعطاه الله الحكمة وعلمه من عنده علماً غزيراً، ففي أثناء سيرهما أتيا قرية فطلبوا من أهلها طعاماً فأبوا ضيافتهما ، فوجدا فيها جداراً مائلاً يكاد يسقط فبناه العبد الصالح وأقامه تطوعاً دون أجر . وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمْ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ (٧٧) [ الكهف ] .

ومن الأعمال التطوعية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ما قام به ذو القرنين من إقامة السد لحماية قوم من غارات يأجوج ومأجوج الذين كانوا يفسدون في الأرض ويخربونها ، وقد عرض القوم أن يدفعوا لذى القرنين أجراً على عمله ، ولكنه تطوع بالعمل بعبقة وصلاح وقصد للخير ، اكتفاء بما منحه الله من ثروة وسلطان فطلب مساعدتهم فقط (١) .

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ (٩٤) قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (٩٥) [ الكهف ] .

ومن أمثلة الأعمال التطوعية أيضاً التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ماورد في قصة زواج موسى عليه السلام ، فقد زوج شعيب عليه السلام إحدى ابنتيه لموسى عليه السلام على أن يكون مهرها العمل عنده ثمانى سنوات ، فإن أتمها عشرأ فمن عنده تطوعاً ، ولم يلزمه بأطول الأجلين ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢٧) [ القصص ]

وإذا كانت التطوعية تقوم في جوهرها على مبادئ أساسية تتركز في إحساس الفرد بالفرد والفرد بالجماعة والمجتمع والأمة ، وإحساسهم جميعاً بالتألى به، والعمل في سبيل بعضهم البعض ودون انتظار مقابل (مادى/مالى - بالذات) من ناحية، وباختيارهم وإرادتهم وفقاً لمشيئتهم الحرة وبلا إكراه أو تسلط من ناحية أخرى ، فإن الإسلام قد احتوى على ما هو مماثل لهذه المبادئ بل وما هو أكبر وأعمق منها نظراً وعملاً .

فالتطوعية بمعنى فعل الخيرات والدخول في أنشطة إيجابية من جهة ، ثم الإحجام عن فعل الشرور . والأعمال السلبية ومقاومتها من ناحية أخرى أمر كامل الوضوح في صميم الإسلام ، فإذا كان القرآن ينظر إلى المسلمين باعتبارهم ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

(١) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

لِلنَّاسِ ﴿ فَإِنَّهُ لَمْ يَرِ هَذَا إِلَّا لَاتَصَافِهِمْ بِصِفَتَيْنِ تَأْخِذَانِ شَكْلَ الْجَنَاحَيْنِ اللَّذَانِ يَحْلُقُ بِهِمَا الْمُؤْمِنُ فِي آفَاقِ الْإِنْسَانِيَةِ وَهُمَا جَنَاحُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ( أَوْ فِعْلُ الْخَيْرِ ) كَصِفِهِ أَوَّلَى ، أَوْ الْعَمَلُ ضِدَّ الشَّرِّ وَمَقَاوِمَتُهُ كَصِفَةِ ثَانِيَةِ (١) ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ [ آل عمران ] .

بمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس (٢) ؛ لأنهم هم الذين ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) ﴾ [ آل عمران ] .

« وإذا كان الإسلام يأمل في صميمه أن تكون هذه هي صفات المسلمين جميعاً ، فهو يعلم أيضاً أن النفوس البشرية ليست سواء من حيث تقبلها للخير أو جنوحها للشر . فهي مطبوعة على الخير كما أنها مطبوعة على الشر ؛ وهي لذلك تأتي الإيجابيات إتيانها للسلبات ، ومن أجل هذا فإنه في واقعه يتوقع أن تقوم فئة - أكثر من غيرها - تتعهد فعل الخيرات وهو يعدها بالفلاح وحسن الجزاء » (٣) قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾ [ الانبياء ] .

وقوله : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾ [ آل عمران ] .

إن هذه « الفئة النشطة في الخير هي بلا شك الفئة التي تطوعت واستجابت لداعي الله حين دعاهم لما يحبههم ، وهي تعلم أن في ذلك خيرها وخير مجتمعتها وخير أمتها وخير دينها » (٤) : ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ [ البقرة : ١٨٤ ] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾ [ البقرة ] قيل : « المراد وتطوع خيراً في سائر العبادات » (٥) . وبطبيعة الحال فإن استجابة هؤلاء لداعي الله وتطوعهم لفعل الخيرات ومقاومة الشرور إنما تنبع من رغبة خيرة واختيار حر ، وهم لا يهدفون من وراءه أى ربح

(١) عبد المنعم محمد بدر : « اللاتطوعية وأزمة التنمية في العالم العربي الإسلامي » مجلة المسلم المعاصر ، العدد ٣٤ ، ربيع الثاني ، جمادى الأولى ، جمادى الثانية ٣-١٤ هـ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٩١ .

(٣) عبد المنعم محمد بدر : « اللاتطوعية وأزمة التنمية في العالم العربي الإسلامي » مجلة المسلم المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

(٥) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

مادى أو متاع دنيوى ، وإنما ييغون به مرضاة الله وحده ، ويطلبون رضوانه ، وهذه هى فى الواقع قمة التطوعية كما وضحت فى مفهومها الحديث (١) ، فهم فى الإسلام يعلمون : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٥) [ التوبة ] وأنه يقول : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٣٥) [ الكهف ] ، ويقول الواحد منهم لذويه وعشيرته : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٩) [ الشعراء ] . وهم فى كل ذلك يعلمون أن أجْرهم مدخر للآخرة ، وأن أجر الآخرة هذا أكبر وأعظم من أى أجر - دنيوى - آخر : ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) [ النحل ] .

إن « عالمنا العربى الإسلامى مازال فى كثير من مواقفه يثن تحت وطأة عدم الإقبال على مثل هذا اللون من الأنشطة رغم أن فيه صلاحه أو بعضه على الأقل . صحيح أن هذا العالم لم يعدم ، ولن يعدم بعض أمثلة حية واتجاهات صحيحة فى هذا المجال ، ولكن الصحيح أيضاً ، أن كثيراً من هذه الاتجاهات لم يرق له - سواء كان من ناحية الكم أو من ناحية الكيف - إلى الآفاق المأمولة وخاصة إذا ما نظر إلى هذه الأمور من خلال ظروفه الصعبة التى يتعايش معها » (٢) .

إن المقارنة بين ماهر قائم فى عالمنا العربى والإسلامى ، وما يأمرنا به إسلامنا يشير إلى تقاعس مواطنينا عن الإقدام إلى مثل هذه الأعمال التطوعية ، ومن ثم ينبغى على المدرسة أن تضع فى مناهجها مايدعم هذا الاتجاه فى نفوس طلابها ، فما أحوجنا إلى ذلك .

### الأمانة :

الأمانة هى رأس مال الممتن المسلم والذى يأتمنه الناس على كثير من معاملتهم معه ، فهم يأمنونه فى جودة البضاعة وفى كيلها ووزنها وفى سعرها ، فإن لم يكن مراعياً ومؤدياً لتلك الأمانة كان واقعاً تحت طائلة حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » (٣) ، ويدعوننا الله إلى الأمانة بقوله : ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [ البقرة : ٢٨٣ ] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [ النساء : ٥٨ ] وهو « يعمم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والتذورات وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد ، ومن

(١) عبد المنعم محمد بدر : « اللاتطوعية وأزمة التنمية فى العالم العربى الإسلامى » مجلة المسلم المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٣) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٥ .

حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتون به من غير اطلاع بينه على ذلك ، فأمر الله عز وجل بأدائها <sup>(١)</sup> . « وقال ابن عباس : لم يرخص الله لمعسر ولا لموسر أن يمسك الأمانة » <sup>(٢)</sup> .

والمسلم الأمين تتداعى عليه الناس طلباً لقضاء حوائجها سواء كان صاحب حرفة أو مهنة ، ويتبين ذلك من قصة نبي الله موسى وبنات شعيب ؛ حيث يقول تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [ القصص ] ، ولقد كانت الأمانة سمة بارزة من سمات المجتمع الإسلامي في مجال الاشتغال بالمهن والحرف ، بل في الحروب والغنائم . ومن الأمانة أن ينتج المنتج على أكمل وجه عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [ النحل ] ، وفي شأن الأمانة يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ [ آل عمران : ٧٥ ] الأمانة عظيمة القدر في الدين ، ومن عظم قدرها أنها تقوم هي والرحم على جنبتي الصراط ( جنبتي : جانبه وناحيته ) <sup>(٣)</sup> .

وكان رسول الله ﷺ يحض أصحابه على الأمانة مرة بالقدوة وأخرى بالموعظة ، وكان يحكى سير الأمانة فكان يقول مثلاً : « اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جرة ذهب فقال له الذى اشترى العقار : خذ ذهبك منى إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب ، فقال الذى اشترى الأرض : إنما بعنتك الأرض وما فيها قال : فتحاكما إلى رجل فقال الذى تحاكما إليه : ألك ولد ؟ فقال أحدهما لى غلام ، وقال الآخر : لى جارية قال : أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسكما منه وتصدقا » <sup>(٤)</sup> ، وفى هذه القصة تعميق للأمانة عن طريق القصة .

وكان صحابة رسول الله ﷺ من أشد الناس حرصاً على أداء الأمانة والتابعين من بعدهم ، حتى إن أبا حنيفة قد بعث بمتاع إلى حفص بن عبد الرحمن شريكه فى التجارة وأعلمه أن فى ثوب فيه عيباً ، فبينه للناس ، فباع حفص المتاع ونسى أن يبين واستوفى ثمناً كاملاً لثوب غير كامل ، وقيل : إن الثمن كان ثلاثين ألفاً ، أو خمسة وثلاثين ألفاً ، فأبى أبو حنيفة إلا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبعث عن المشتري ، ولكنه لم يهتد إلى الرجل فأبى أبو حنيفة إلا فصلاً عن شريكه وتاركاً ، بل رفض أن يضيف الثمن إلى حر ماله وتصدق به كاملاً <sup>(٥)</sup> .

(١) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٥ .

(٢) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٢٥٦ .

(٣) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ١١٧ .

(٤) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٣٣ .

(٥) حسنى أدهم جرار : القدوة الصالحة ، أخلاق قرآنية ، ونماذج ربانية ، دار الضياء للنشر والتوزيع ، الأردن ، عمان ، بدون تاريخ ، ص ٧٦ .

ويروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة ، وضرب حلل أخرى كل حلة قيمتها مائتان ، فمر إلى الصلاة ، وخلف ابن أخيه في الدكان فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة فعرض عليه من حلل المائتين ، فاستحسنها ورضيها واشتراها ، فمضى بها وهي على يديه ، فاستقبله يونس ، فعرف حلته ، فقال للأعرابي : بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعمائة ، فقال : لاتساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردها فقال : هذه تساوى في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها ، فقال يونس : انصرف ، فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه في ذلك وقال له : أما استحييت ! أما اتقيت الله ! تربح الثمن وتترك النصح للمسلمين ؟ فقال له : أما والله ما أخذها إلا وهو راض بها ، فقال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ! (١).

### تجنب أكل أموال الناس بالباطل :

« عنى الإسلام بالمحافظة على أموال الناس فحرم الله أكل أموال الناس بالباطل بكل الوسائل والأساليب تحت أية مسميات ، سواء كان هذا الأكل سرقة واعتداء ، أو كان تعاملًا كالربا أو كان انتقاصاً لأجر عامل ، أو كان غشاً واحتيالاً في البيع والشراء » (٢).

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٣٩) [ النساء ] والمعنى أن الله تبارك وتعالى ينهى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل أى أنواع المكاسب التى هى غير شرعية كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ « تعنى ألا تتعاطوا الأسباب المحرمة فى اكتساب الأموال ، لكن المتاجر المشروعة التى تكون عن تراضٍ من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها فى تحصيل الأموال » (٣).

وفى الحديث : « من ظلم من الأرض شيئاً طوقه من سبع أرضين » (٤) ، وفى حالة الاعتداء على المال أجاز الإسلام للمالك أن يدفع عن ماله كل معتد حماية لحزمة ماله وحفاظاً عليه مهما كلفه ذلك ، وفى الحديث : « من قتل دون ماله فهو شهيد » (٥).

(١) المرجع السابق ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) فوقية محمد ياقوت : القيم التربوية للتنمية فى الحديث الشريف ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

(٣) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٧٩ .

(٤) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٧٠ .

(٥) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٧٩ .

## تجنب المنابذة والملامسة :

حرص النبي ﷺ على عدم التضليل والخداع في البيع والشراء ، فنهى عن كل ما يؤدي إلى الغش والتدليس ، عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ « نهى عن المنابذة وهي : طرح الرجل ثوبه بالبيع إلى الرجل قبل أن يقبله أو ينظر إليه ، ونهى عن الملامسة ، والملامسة : لمس الثوب لا ينظر إليه » (١).

## تجنب المزبنة :

كان رسول الله ﷺ ينظر في أحوال المزارعين وتجار الثمار ، وكان ينهى عن بيع معينة وخبيثة « عن ابن عمر رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن المزبنة وهي أن يبيع ثمر حائطه إن كان نخلاً بثمر كيلاً وإن كان كرماً إن يبيعه بزبيب كيلاً ، وإن كان زرعاً أن يبيعه بكيل طعام ، ونهى عن ذلك كله » (٢) ، والمزبنة : أن يبيع الثمر بكيل إن زاد فلي وإن نقص فعلى ، فثبت من صور المزبنة هذه الصورة من القمار ، وقال مالك : المزبنة كل شيء من الخراف لا يعلم كيلاه ولا وزنه ولا عدده إذا بيع بشيء مسمى من الكيل وغيره ، سواء كان من جنس يجري الربا في نقده أم لا ، وسبب النهي عنه ما يدخله من القمار والغرر » (٣).

## شروط البيع والشراء :

يجب ألا يحتوي العقد بين اثنين على شرط يخالف الشريعة الإسلامية ، سواء جرى هذا العقد بين أفراد أو جماعات ، وما يدل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها ؛ إذ تقول : « جاءني بريرة فقالت : كاتب أهلي على تسع أواق في كل عام أوقية فأعينيني ، فقلت : إن أحب أهلك أن أعدها لهم ، ويكون ولاؤك لي فعلت ، فذهبت بريرة إلى أهلها ، فقالت لهم فأبوا عليها ، فجاءت من عندهم ورسول الله ﷺ جالس فقالت : إني قد عرضت ذلك عليهم فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم ، فسمع النبي ﷺ فأخبرت عائشة النبي ﷺ فقال : « خذوها واشترطى لهم الولاء فإنما الولاء لمن أعتق » ففعلت عائشة ثم قام رسول الله ﷺ في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، ما بال رجال يشترون شروطاً ليست في كتاب الله ، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط ، قضاء الله أحق وشرط الله أوثق وإنما الولاء لمن أعتق » (٤).

وفي رواية أخرى : « أن عائشة أم المؤمنين أرادت أن تشتري جارية فتعتقها فقال

(١) الإمام البخاري : صحيح البخاري ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٩١ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٢ ( باب بيع الزرع بالطعام كيلاً ) .

(٣) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٤٤٩ ( باب بيع المزبنة ) .

(٤) الإمام البخاري : صحيح البخاري ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٩٥ ، ٩٦ ( كتاب البيوع ) .

أهلها : نبيعها على أن ولاءها لنا ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « لا يمنعك ذلك فإنما الولاء لمن أعتق » (١) .

### مراعاة الوقت ودقته :

من الفضائل التي يمتاز بها الإسلام أنه يعرف للوقت قيمته، ويقدر خطورة الزمن، ويؤكد الحكمة الغالية « الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك » ويجعل من دلائل الإيمان وأمارات التقى أن يعي المسلم هذه الحقيقة ويسير على هداها (٢) ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَقُونَ ﴾ [يونس]، ويعتبر الإسلام الزاهدين في غدهم والغارقين في حاضريهم المسحورين ببريق الدار العاجلة ، قوماً خاسرين سفهاء ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَاوَاهُم النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس] .

« إن الوقت هو رأس المال الحقيقي للإنسان والذاهب منه لا يعود بحال ، على حين أن المال يذهب ويجىء فالإسراف في الوقت أمر لا يقدم عليه عاقل ، ولا ينبغي أن يرضاه إنسان لنفسه ، والإسلام يدعو أبناءه جميعاً إلى تقدير الوقت والزمن حق قدره ، وينهى نهياً شديداً عن إضاعة شيء منه في غير خير أو فائدة؛ ولهذا جعل من الإيمان الإعراض عن اللغو والقليل والقال وما لاخير فيه، بل قد يأتي بالضرر منه » (٣)، ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان] .

لقد كان المسلمون الأوائل أحرص الناس على أوقاتهم « فيقول الحسن البصري : أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد حرساً على دراهمكم ودنانيركم » (٤) ، ومن هنا كان حرصهم البالغ على عمارة أوقاتهم بالعمل الدائب ، والحذر من أن يضيع شيء منه في غير جدوى .

بل لقد كانوا يحرسون كل الحرص على ألا يمر يوم أو بعض يوم أو برهة من الزمان وإن قصرت ، دون أن يتزودوا منها بعلم نافع ، أو عمل صالح (٥) ، ويتبين تقديرهم لقيمة الوقت من خلال قراءتنا لكتب الحسبة ، فيقول الشيرازي في الحسبة على الأساكفة : « ولا يماطلون أحداً بمتاعه ، إلا أن يشرطوا لصاحبه إلى يوم معلوم ، فإن

(١) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٩٦ ( كتاب البيوع ) .

(٢) محمد الغزالي : خلق المسلم ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨ .

(٣) محمد يوسف موسى : الأخلاق في الإسلام ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٢٨ .

(٤) يوسف القرضاوى : الوقت في حياة المسلم ، دار الصحوة ، القاهرة ، د . ت ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٤ .

الناس يتضررون بالتردد إليهم وبحبس الامتعة عنهم» (١).

وفى الحسبة على الخياطين يقول ابن الإخوة : « ويمنعهم المحتسب أن يماطلوا الناس بخياطة ، أمتعتهم ويتضررون بالتردد إليهم وبحبس الامتعة عنهم » (٢) ، يتبين لنا مما سبق فرضية احترام العامل المسلم لميعاده ووقته الذى وقته لصاحب المتاع ، وإلا رفع أمره إلى المحتسب .

وفى الحسبة على أصحاب السفن « المراكب » يقول ابن الإخوة : « ويمنعهم المحتسب من السير وقت هبوط الرياح واستمرارها » (٣) ، وفى هذا ما يؤكد تقدير المسلمين لعنصرى الوقت والظروف .

إننا « فى العالم الإسلامى الآن نعرف شيئا يسمى ( الوقت ) ولكنه الوقت الذى ينتهى إلى عدم ؛ لأننا لاندرك معناه ولا تجزئته الفنية ؛ لأننا لاندرك قيمة أجزائه من ساعة ودقيقة وثانية ، ومن المؤكد أننا بتحديد فكرة الزمن ، يتحدد معنى التأثير والإنتاج ، وهو معنى الحياة الذى ينقصنا » (٤).

« إن الفرق شاسع بين موقف الإسلام من الوقت ، وهو الموقف الذى يحصى كل دقيقة ، ويحاسب عليها ، وبين أسلوب المسلمين فى الحياة وهو الأسلوب الذى يتفنن فى إهدار الوقت بكل الطرق . ففى الوقت الذى تفيدها به التقارير أن عطاء الإنسان الأوربى اليومى يتجاوز السبع ساعات تفيدها التقارير الرسمية نفسها أن عطاء الإنسان المسلم لا يتجاوز ثلاثين دقيقة » (٥) ، والفاحص المدقق لأحوال عالمنا الإسلامى الحالى يمكنه أن يلاحظ بسهولة كيف يقضى بعض شبابنا وقت فراغه فى لعب الورق والرد والدمينو والشطرنج وما مائلها من ناحية ، أو يفرجون على بعض الأنشطة الرياضية ( وخاصة كرة القدم ) ، دون ممارستها ، من ناحية ثانية ، أو يتسكعون فى الطرقات والأسواق ممارسين أنواعا من الشغب (٦).

وفى هذا ضعف إيمان وجهل بالشرعية ؛ ذلك « لأن المؤمن أعمق الناس إحساساً بقيمة الوقت : إن الله سائله يوم الجزاء عن عمره فيما أفناه ؟ وعن شبابه فيما أبلاه ؟ فهو لهذا يضمن أن يضع فى عبث أو يبعثر فى مهب الرياح ؛ لأنه رأس ماله الوحيد ،

(١) عبد الرحمن الشيروى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، مرجع سابق ، ص ٧٢ .

(٢) ابن الإخوة : معالم القرية فى أحكام الحسبة ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٤) مالك بن نبي : شروط النهضة ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ .

(٥) يوسف القرضاوى : الوقت فى حياة المسلم ، مرجع سابق ، ص ٣ .

(٦) عبد المنعم محمد بدر : « اللاتطوعية وأزمة التنمية فى العالم العربى الإسلامى » مجلة المسلم المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .

فكيف يضيعه ويبقى صفر اليدين ؟

إن المسلم يخشى أن تنفست الأيام من يديه خاوية من العمل والإنتاج ، فلا يؤخر عمل اليوم إلى الغد ؛ لأن للغد عمله الذى يزحمه فلا يتسع لعمل غيره من الأيام . وهو حريص على أن يطيل حياته - بعد موته - يطول أعماله أنه يحرص أن يخلف وراءه علماً نافعاً أو عملاً طيباً « (١) .

### مراقبة الله فى العمل :

« يدعو الإسلام إلى مراقبة الله عز وجل فى كل شأن من شئون الحياة سواء فى مجال الشعائر أو السعى على الرزق ، ويشير إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله : القول الطيب ، العمل الصالح ، القول الطيب الذى يصعد إلى الله فى علاه ، والعمل الصالح يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع » (٢) .

يقول الله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

وقد يستطيع الإنسان أن يقلت من مراقبة صاحب العمل ، وعقوبة القانون ، ولكنه لن يقلت من مراقبة الله وعقابه . ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١١٠) [الكهف] ، لأن الحق - سبحانه وتعالى - مطلع علينا ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧) [المجادلة] .

ويركز رسول الله ﷺ فى حديث طويل على مراقبة الله تعالى فيقول : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٣) .

فالمسلم عليه أن يستحضر « أن الله مطلع عليه يرى كل ما يعمل » (٤) . فإذا استحضر هذا المعنى ، ظهر عمله على أفضل صورة ممكنة .

### الإتقان :

الإتقان هو المعيار الذى نزن به قيمة العمل من حيث السمو والضعفة ، ونحن نعلم أن الناس ليسوا سواء فى أداء أعمالهم ، إذ بعضهم يرتفع بعمله ، فيرفعه عمله ،

(١) يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة ، مرجع سابق ، ص ٣ .

(٢) سعد المرصفى : العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ٢٥١ .

(٣) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٠ (كتاب الإيمان) .

(٤) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢١٨ .

وبعضهم الآخر يهمل فيه ويخرجه ناقصاً أو معيباً وليس من الضروري أن يكون ذلك عن قصد ، بل كثيراً ما يكون عن إهمال وسوء تعليم ، ولاشك إذاً في أن قيمة العمل تتدرج في مسلم من حيث الإتقان والكمال ، والنقص والإهمال ، ولكن العمل المتقن الذى يحسن صاحبه عمله وإخراجه يكون كالجوهرة تتألق فتبهر الأبصار (١).

ومن هنا نجد الرسول ﷺ يدعو إلى الإحسان فى كل عمل وهو المعنى المراد لمعنى الإتقان ، فيقول ﷺ : « إن الله كتب الإحسان على كل شئ فإذا قتلتم فأحسنوا القتل وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » (٢). فإذا كان الإحسان مطلوباً فى الأعمال التى لا ترتب عليها نتائج مؤثرة فى الجماعة فأحرى به أن يطلب فى الأعمال ذات القيمة الاجتماعية ، « فالقتل فى الجهاد فى سبيل الله والذبح تنتهى آثارهما أو تكاد بإتمام إنجازهما ، ومع هذا لا بد من الإحسان فيهما ، رحمة من ناحية ، وإكساباً للإنسان خلق الإتقان من ناحية أخرى » (٣).

ويقصد بإتقان العمل « إحكام أدائه بحيث يكون مستوفياً للمواصفات المطلوبة وتفاوت درجات الإتقان فى الأعمال ، بحيث تقل درجة الإتقان كلما قلت المواصفات المطلوبة فى الأداء ، وعدم إتقان العمل يؤدى إلى إلحاق الضرر بالعامل نفسه ؛ لأنه سوف يؤدى إلى زعزعة الثقة فى عمله وتقييم أجره فى المدى الطويل على أساس عمله الهابط ، ويؤدى كذلك إلى إلحاق الضرر بصاحب العمل ؛ لأنه يدفع أجراً لا يقابله عمل متقن .

كما يؤدى إلى انصراف المتعاملين معه عن خدماته أو إنتاجه ، وقد يمتد الضرر إلى الوطن ككل ، فإذا كان الإنتاج عبارة عن سلع قابلة للتصدير ، وكانت غير متقنة انصرف عنها المستوردون ، ويحثوا عن أسواق أخرى لاستيراد سلعهم منها مما يؤثر على توازن ميزان المدفوعات للدولة المصدرة التى لم يتقن عمالها منتجاتها » (٤).

إن من أسباب عدم الإتقان نقص الخبرة أو قلة العلم ، ومن كان هذا شأنه لاتفيد أمانته فى الوفاء بعمله كطبيب قليل الحظ من عمله ، فهو لن يستطيع أداء واجبه على الوجه الأكمل مهما صدقت نيته .

والعلم سبب من أسباب الإتقان وقد « ذكر أن عاملاً عمل عملاً تجاوز فيه ، ودفعه

---

(١) سعيد إسماعيل على : « العمل فى الفكر التربوى الإسلامى » دراسات فى التربية الإسلامية، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

(٢) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٦ ، ص ٧٢ .

(٣) سعيد إسماعيل على : « العمل فى الفكر التربوى الإسلامى » دراسات فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

(٤) قطب إبراهيم محمد : الإطار الأخلاقى لمالية المسلم ، مرجع سابق ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

لصاحبه فلم ينم ليلته كراهة أن يظهر عدم الإلتقان فى عمله فشرع فى عمل آخر بدله حتى أتقن ما يقتضيه واجب العمل ، ثم غدا به إلى صاحبه ، فأخذ الأول وأعطاه الثانى ، فشكره فقال : لم أعمل لأجلك بل قضاء لحق العمل ، كراهة أن يظهر من عملى عمل غير متقن ، فمتى قصر العامل فى العمل فقد كفر ماعلمه الله ، وربما سلب الإلتقان ، وعليه أن يحسن عمله ويتقنه « (١) .

ولقد تشعبت أنواع العمل فى هذا العصر بتشعب العلوم والفنون والصناعات التى لا تكاد تعد ، وصارت طوائف العمال فى الصناعة والتجارة والزراعة تخضع للتوجيه العلمى والفنى الذى ينمو دائماً ، وصارت الكفاية الفنية هى سلاح كل عامل ، واتسع نطاق التنافس بين الشعوب والدول فى وقت السلم فى ميادين الأعمال المختلفة وصار السبق لمن يتقنون الأعمال ويغارون عليها ويجودونها ويطورونها إلى الأحسن والأفضل « (٢) .

### الشعور بالمسئولية :

« إن مركز الدائرة الحضارية هو الإنسان وأهم خصائصه هو العقل ، والعقل يعنى الكرامة الإنسانية واستقلال الشخصية ، ويعنى الحرية ، ويعنى المسئولية « (٣) . فالإنسان مسئول فى هذه الدنيا ليس فى الآخرة ، وهو مسئول عن كل أعماله سواء كان فرداً فى المجتمع أو رئيساً أو رباً لعائلة أو مديراً أو موظفاً أو عاملاً « (٤) . يقول تعالى : ﴿ وَلَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [ النحل ] أى : « يسألكم الله تعالى يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتل والنقير والقطمير » (٥) ، ويقول تعالى : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [ القيامة ] أى : « ليس يترك فى هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يترك بدون حساب فى الآخرة » (٦) ، ولما كان الإنسان لديه الاستعداد والقدرة على أن يقوم بعمل فيه صلاح المجتمع وسعادة البشر ، وكذلك على أن يقوم بعمل فيه إفساد المجتمع وإشقاء البشر ، أبرز القرآن الكريم مبدأ « المسئولية الأخلاقية » فالإنسان مسئول عن عمله فرداً أو جماعة ، لا يؤخذ واحد بوزر واحد ولا مجتمع بوزر مجتمع « (٧) ،

(١) سعد المرصفى : العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦ .

(٢) عبد المنعم خلاف : المادية الإسلامية وأبعادها ، مرجع سابق ، ص ١٦٥ .

(٣) محمود حمدى زقزوق : الحضارة فريضة إسلامية ، مجلة المسلم المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٣١ .

(٤) حسين آتائى : النظام الأخلاقى فى السياسة المالية ، مجلة المسلم المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٥) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ .

(٦) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ .

(٧) سعيد إسماعيل على : « العمل فى الفكر التربوى الإسلامى » دراسات فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

يقول تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] ، ويقول أيضا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤] ، والعمل النافع الصالح هو محور المسؤولية التي حملها الإنسان يوم استخلفه الله في الأرض ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الاعراف: ١٢٩] . ومن خلال التربية الإسلامية يدرك المرء أن استخلاف الله للإنسان وإن كان تشريفاً له فهو في الوقت ذاته يلقي عليه عبئاً ومسئولية لا مهرب له من القيام بتبعاتها ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] . وقيام الإنسان بهذه المسؤولية هو موطن مسائلته ، ونوعية عمله هي الفيصل يوم الحساب : ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] .

والتربية الإسلامية إذ تعد المرء وتؤمله ليكون قادراً على القيام بمهمة الاستخلاف وتحمل تبعات المسؤولية الكبرى ، فهي تعدّه أيضاً ليكون مدرباً للكيفية التي يجب أن يكون عليها استخدامه الأمثل للوسائل التي زوده الله بها ، والتي يستطيع أن يرتفع بها إلى أفق السمو للقيام بتبعات الاستخلاف فيفوز برضا الله وحسن مآب (١) .

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] والذات الإنسانية مزودة أيضاً بالوسائل التي يستطيع بها أن تهبط إلى حضيض البهيمية حيث يريد الشيطان ، فيحق عليها سوء المصير ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِنَّمَا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١١] . والإنسان يقبل هذه المرتبة أو تلك من خلال تفكيره وعقله وسمعه وبصره ، تلك الوسائل التي منحه الله إياها ، ليكون قادراً على القيام بمهمة الاستخلاف والتي صارت هي أيضاً جزءاً من مسؤوليته ﴿وَلَا تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] .

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] .

وفي رأى بعض الباحثين : أن الأمانة المشار إليها هنا هي الابتلاء بتبعة التكاليف وحرية الإرادة ومسئولية الاختيار ؛ وذلك لأن كل الكائنات عدا الإنسان مسيرة بمقتضى سنن كونية تخضع لها على وجه التسخير والامتثال دون تحمل لتبعة ما تعمل ، بينما الإنسان وحده هو المسئول عن عمله المحاسب عليه ثواباً وعقاباً ، ولا أحد يحمل عنه

(١) سامية يوسف محمد صالح : مبادئ التربية البيئية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

تبعه عمله ولا يقوت بغير جزاء» (١) ، وفى هذا يقول تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (١٥) [ الجاثية ] .

فالإنسان فى الإسلام مخلوق من خلق الله ، إلا أنه مخلوق مسئول ذو رسالة هى : الاستخلاف ، حيث استخلفه الله فى الأرض ، وسخر له ما فيها من نعم ، وزوده بالمواهب التى تعينه على الخلافة وتيسر له طيبات الحياة كلها ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦٤) [ غافر ] ، من الطبيعى بعد ذلك أن يتحمل كل إنسان نتيجة عمله هو ، وما قدمته يده ، ولا يحمل وزر غيره ، كما أن غيره لا يحمل وزره هذا هو الإنسان المسئول إذ لا يقبل بعد أن يهين له الله كل هذه الإمكانيات ، ويكرمه ، ويسخر له كثيراً من مخلوقاته أن يكون غير مسئول ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴾ (١٠٤) [ الانعام ] ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١٠٨) [ يونس ] ، ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً (١٤) مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١٥) [ الإسراء ] .

وبين لنا رسول الله ﷺ أن كل إنسان مسئول فى حديثه الجامع « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته » فقال : وحسبت أن قد قال : والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته (٢) .

وقد وردت لفظة (مسئول) فى أربع آيات قرآنية، (ومستولون) فى آية واحدة (٣) ، والآيات الأربع التى ورد فيها لفظة ( مسئول ) ، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (٣٤) [ الإسراء ] ، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٣٦) [ الإسراء ] ، ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴾ (٦٦) [ الفرقان ] ، ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ (١٥) [ الاحزاب ] . وقد وردت لفظة

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإنسان ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٥٨ .

(٢) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٦ .

(٣) محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مرجع سابق ، ص ٤٢٩ .

(مستولون) في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتُولُونَ (٢٤)﴾ [الصفات] . والإنسان في الإسلام مستول عن أعماله مسئولية شخصية ، حيث لا يشاركه أحد حمل تبعاتها ، ولا يملك أحد درء ما حاق به من عذاب جزاء إفساده في الأرض ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)﴾ [الانفطار] فالمسئولية في النهاية مسئولية فردية ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادُلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾ [النحل] ، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ [مريم] ، ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس] ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر] ، ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)﴾ [الزمر] ، ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)﴾ [إبراهيم] ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُوا نَفْسَ مَّا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾ [الحشر] ، ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)﴾ [الانفطار] ، ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٢) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤)﴾ [التكوير] .

وتحصر التربية الإسلامية على تعميق شعور المسلم بهذه المسئولية وتأكيد فحواها في نفسه ، فهي تكثر من تذكير الإنسان بالنعم التي أنعم الله بها عليه ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)﴾ [المائدة] ومن رحمة الله بعباده أنه لم يكلفهم بمسئولية أكثر مما يطيقون ، ومن ثم فمسئوليتهم كاملة عما يعملون ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَّا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَّا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَّا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾ [البقرة] .

والخلاصة : « إن كل واحد مسئول حسب قدرته المادية والمعنوية ، وكذلك هو مسئول حسب وسع نفوذ دائرته في الأمور الاجتماعية والتجارية والسياسية ، ونظام الشريعة يشملهم جميعاً دون تفرقة وتمييز ، وعندما طلب الشرع من الأفراد اتباع الموازين والمعايير في كسب الحلال ألقى التبعة عليهم في تصرفاتهم فيما يكسبون من المال والثروة والمهارة والصناعة ، وكلفهم بمحاسبة أنفسهم أولاً ثم بمحاسبة من يلي أمورهم ، وإذا قصرُوا في واحد منها أو في كليهما يختل نظام المجتمع وسوف يحاسبهم الله تعالى إما في الدنيا وإما في الآخرة أو في كليهما معاً » (١) .

(١) حسين آتاي : النظام الأخلاقي في السياسة المالية ، مجلة المسلم المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٧١ .

إن الشعور بالمسئولية لدى المسلم يجعله يحاسب نفسه ، فينتج ليس الإنتاج فقط ولكنه الإنتاج المتقن الذى سيسأل عنه .

### العمل التعاونى :

التعاون أساس تقدم الأمم ونهضتها ؛ لذلك أمر القرآن الكريم بالتعاون وشجع العمل التعاونى مادام فى سبيل الخير ، يقول تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) [ المائدة ] ، وفى هذا أمر من الله لعباده بالمعاونة بينهم على فعل الخيرات وترك المأثم (١) .

« والبر كما هو معروف اسم جامع لكل خصال الخير ، ففى الأمر بالتعاون أمر بأن يعين الغنى الفقير ، ذا الحاجة المحتاج إلى مساعدة ، وأمر لذى العقول الرشيدة بتوجيه ماله فى حاجة للنصح والإرشاد إلى طريق الخير ، وأمر بأن يعين الصانع الماهر أخاه المتوسط المهارة ، إلى آخر أنواع التعاون فى سبيل الخير » (٢) ، أما الاشتغال بالشعائر والتظاهر بالتقوى ، مع الضن بالعون وحجب الخير عن الناس فهو دليل على وهن الإيمان وكذب الادعاء ، وخلل القصد ، مما يورد صاحبه موارد الهلاك . وما أحوج مجتمعنا اليوم إلى هذا اللون من التعاون بين الافراد وأن يقوم كل فرد بواجبه تجاه الآخرين .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن التعاون الجماعى فى العمل أصبح ضرورة ملحة ؛ ذلك لأن الجهد الفردى مهما كان بارعاً فهو محدود فى نتائجه إذا قيس بالجهد الجماعى ؛ ولذلك فالإسلام يرسى دعائم العمل التعاونى بالقول والعمل فى كثير من المواقف إيماناً منه بأن سعادة الفرد لا تكون إلا بسعادة المجموع ، فهو يعلن - وعلى سبيل المثال - أن « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (٣) .

والرسول عليه الصلاة والسلام يهدف من وراء هذا إلى « إقامة نظام اجتماعى تسوده روابط الأخوة والود كأفراد الأسرة الواحدة ، أخوة لا تحصرها حدود جغرافية . ولا تحتكرها عائلة أو قبيلة أو جماعة معينة ، وفى هذا يوجه الله - سبحانه وتعالى - الخطاب إلى نبيه الكريم ليعلن رسالته للناس كافة » (٤) .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

(١) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

(٢) محمد يوسف موسى : الأخلاق فى القرآن ، مرجع سابق ، ص ٦٥ .

(٣) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ١٢ ( كتاب الآداب ) .

(٤) محمد عمر شبرا : النظام الاقتصادى فى الإسلام ، مجلة المسلم المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٨٣ .

والنتيجة الطبيعية لهذه الأخوة يظهرها التعاون المتبادل والمساعدة المتبادلة لاسيما بين المسلمين الذى توحدهم العقيدة ، بالإضافة إلى الأصل المشترك مع غيرهم من الناس .

لذا ينبغى أن تهيئ المدرسة الفنية ما ينمى جوهر هذه الروح التعاونية ، ويقتضى ذلك بالنسبة للمنهج الدراسى أن يوفر فرص العمل الجماعى فى شكل مشروعات تبرز قيمة العمل التعاونى بعيدا عن الفردية ؛ لأن تربية مثل هذه العادات لها قيمة كبيرة فى مجال الإنتاج (١) ، كما ينبغى إحلال العمل التعاونى والتخطيط المشترك فى أساليب التعليم بالمدرسة محل العمل الفردى ، والتنافس غير المرغوب فيه ، بما يستلزمه ذلك من تهيئة الفرص التعليمية التى يتعاون فيها المتعلمون لتنفيذ مشروعات مشتركة معينة أو الاشتراك فى إنتاج معين (٢).

الخلاصة أن المسلم « إذا أراد أن ينعم فى دنياه وأخراه ، عليه أن يراعى آداب الدين فى طلب الرزق وأن يضع ماله فى ما يجلب له وللناس الخير » وللوصول إلى أهداف المجتمع القائم على الأخلاق والأخوة والتعاون لابد من وجود نظام تربوى يغرس هذه القيم فى نفوس النشء ، وينظر إليه كإلزام أدبى للمجتمع ، ومهمته أساسية من مهام الدولة الإسلامية ، تعمل على تنفيذها بكل جد وإخلاص (٣).

إن المسلم إذا التزم بأخلاقيات المهن والحرف فى الإسلام كان نموذجا للدين يدين به ويدعو إليه ، أو غمطاً حياً متحركاً للفكر الإسلامى الذى يملأ قلبه وعقله ، ويصدق سلوكه فى الحياة مع نفسه أو مع الآخرين .

وهكذا نجد أن الآيات البينات والأحاديث الشريفة التى توضح وتؤكد على القيم الخيرة من اتجاه النية فى العمل إلى الله - سبحانه وتعالى - وتجنب النجش ، والصدق ، وتجنب الغش والخلف والاحتكار ، والوفاء بالكيل والميزان والعهد ، واتقاء الشبهات ، والسماحة فى البيع والشراء ، وإنظار المعسر ، والأمانة وتجنب أكل أموال الناس بالباطل ، وكذا النهى عن المنابذة والملامسة عند البيع ، والتطوع بدون أجر فى ظروف خاصة .

كل هذه القيم إذا ما اتبعها مجتمع من المجتمعات يأخذ بأسباب التنمية ويخطط لعمليات التقدم والتمدن ، فإنه يعمل وبلاشك فى إنجاز مشروعاته وينفذ خططه فى جو اجتماعى ومناخ تعاونى ، خاصة إذا عرفنا أن الإنسان هو هدف ووسيلة التنمية ، فمثل

(١) محمد كمال طه الحينى : الاتجاه البوليتيكنيكى فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

(٢) إبراهيم عصمت مطاوع : أصول التربية ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .

(٣) على عبد الحليم محمود : المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى ، مطابع دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦ ،

هذه القيم هي الأخرى هدف من أهداف التنمية ، تعمل المجتمعات الإسلامية على تحقيقها والالتزام بها في شكل متوازن لا تغطي فيه الماديات على المعنويات .  
بل « يعتبر الحفاظ على القيم الإسلامية هدفاً من أهداف التنمية كما تعتبر القيم الإسلامية وسيلة فعالة لتحقيق التنمية المتوازنة المتكاملة » (١) .

---

(١) عبد الهادي الجوهري : القيم الإسلامية والتنمية ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، العدد الخامس ، ١٤٠١ هـ ، ص ٥٢٣ .